الرجـل المنـاسـب

فتحـى غانــم

مهرجان القراءة للجميع
للطفل . للشاب . للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة

مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠
مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

الرجل المناسب
فتحى غانم

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : **محمود الهندى**

المشرف العام :
د . سمير سرحان

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الإدارة المحلية
وزارة الشباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

أتت تجرجر أذيالها

أفلت من السيارات المتشابكة الصارخة الزاعقة بأبواقها فى شوارع القاهرة • أفاق من كابوس الزحام ، وانطلق بسيارته الفيات الجديدة مخترقا الطريق الزراعى ، متجها الى الاسكندرية •

كانت الساعة السابعة صباحا ، وحرارة الشمس التى تطل من السماء على يمينه تنبىء بقيظ غير عادى ، فأضاف الى نشوته بالقيادة السريعة نشوة السرور بالهرب من لهيب القيظ الذى سوف يشوى أجساد الباقين فى القاهرة • الصيف يقترب ، ولكنه لا يستطيع أن يتخفف من ملابسه فى هذه الفترة بالذات ، لأن موجات البرد ما زالت مختبئة هنا وهناك ، وهذا القيظ الطارىء هو نوع من المكيدة التى تغريه بخلع ملابسه ليطعنه

البرد طعنة غادرة . هـذا هو ما حدث له فى العام المـاضى ، فأصابته الحمى ولازم الفراش ثلاثـة أسابيع انقطع فيهـا عن محاضراته الأخيرة فى الجامعة ، وافتقدوه فى اللجان الاستشارية للاعلام ، واجتماعات المجلس الأعلى للثقافة ، وكاد يفقد الكثير من رصيده الضخم كصـوت بارز له أهميته وشخصيته تتجه اليها الأنظار كلما فكروا فى اقتراحات أو توصيات جديدة تعلنها الحكومة فى سياسـة الثقافـة والاعلام ، ما آكثر المكائد التى تتربص بالانسان بعد الخمسين ، ولكنه على أى حال أفلت من أعظم هذه المكائد وأخطرها . ألم يفلت من قيود الزواج ؟ انه حر طليق ليس مسئولا عن آحد الا نفسه . الأسـتاذ الدكتور الأعزب . الرجـل الوحيد كما يقولون هو أقوى انسـان فى العالم . لا زوجة تنغص عليه حياته ، زوجة ثرثارة ، آو زوجة مسرفة ، أو زوجة شريرة تطعنه فى شرفه وتخونه ، أو زوجـة تكبله بأولاد فاسدين لأنه لا يخرج من صلب العالم الا نسل فاسـد .

لقد نجا من هذا الكمين الذى يقع فيه الناس ، الأغبيـاء الحمقى ، الذين يلقون بأنفسهم فى ورطة الأولاد ، يكفيه من الأولاد طلبته فى الجامعة « أولادى الطلبة » ما آسخف هـذا التعليم الجامعى الذى يفترض أن الفلسفة تدرس لمئات من الطلبة كل عام ، كأن الحكمة متاع رخيص مشاع ، ومع ذلك فهو يؤدى

واجبــه ويقدم أعظم دروس فى الفلسفة عرفتها الجامعــات فى الشرق الأوسط • الكل يشــهد بذلك • الجميع يعترفون بأن محاضرات الأستاذ « جميل برهان » هى حــدث باهر فى تاريخ الفكر العربى المعاصر •

انه الفكر الذى فرض وجوده بقوة وعن جدارة فى الحياة الثقافية • شهرته عبرت قاعات المحاضرات بالجامعة الى صفحات الصحف وموجات الاذاعة وشاشات التليفزيون • انهم يتحدثون عنه كأسطورة مضيئة ، ظاهرة لن تتكرر قبل مائة عام فى عالم الفــكر والثقافــة ، لقد تعددت ألقابه ، فهو الأســتاذ ، وهو الراهب ، وهو الفيلسوف ، وهو المعلم ، وهو الرائد الذى أعاد صياغة التراث وطوره ، مستعينا بأحدث الاتجاهات الفلسفية فى العالم المعاصر • لقد شق طريقه فى حياة مجتمع مظلم ، وأشرق على الناس كهذه الشمس الساطعة فى كبد السماء • ولكنها كانت رحلة مضنية مريرة من القاع الى القمــة ، من درب عجوة الى الطابق الرابع والعشرين المطل على النيل • أو الطابق الثامن المطل على البحر فى الاسكندرية ، حيث يستجم ويريح أعصابه المرهقة فى عطلة نهاية الأسبوع •

لو كان تزوج فاطمــة بنت الأسطى برعى فور تخرجــه من الجامعة لدفن نفسه حيا فى قاع المدينة ، كان يظن أنه عاجز عن

اتخاذ قرار الزواج ، ولكنه يعرف الآن لمــاذا رفض ، الاجابة واضحة الآن ، فظواهر كثيرة تؤكد أنه مرشح للوزارة فى التعديل الوزارى القادم • وزارة الثقافــة ، أو وزارة التعليم العالى ، أو ربما وزارة البحث العلمى • انه يفضل وزارة الثقافة مع ضمها الى الاعلام • آن الأوان ليجنى ثمار كفاحه ، لم يعد هناك مجال للشك فى قدراته أو شعبيته ، ندواته فى التليفزيون عن السلوك الدينى والأخلاق ، ونظرياته فى نهوض الأمم وانحلالها على أسس وقواعد الســلوك الفردى والاجتمــاعى جذبت انتباه الناس ، وفسرت لهم الكثير من مشاكل حياتهم الخاصة والعامة •

دفاعه عن الأسرة والتشريعات التى يقترحها لحماية الزواج من الأضرار التى تنجم عن عمل الزوجة الأم لاقت استحسانا كبيرا فى أوساط كثيرة • ان لديه مشاريع رائعة حول وســائل مخاطبة الرأى العام وطرق التأثير عليـــه • آه لو تحقق الحلم وأصبحت له الكلمة فيما يذاع على الجماهير •

كانت الحقول ممتدة على جانبى الطريــق تفتح المجــال بلا حدود أمام خياله وطموحه الذى انطلق بلا عقبات • فالرؤية سهلة واضحة ، والسماء خالية من السحب ، والأشجار قصيرة متفرقة لا تحجب شــيئا • انها مجرد اضافات لتجميل المنظر ، والبيوت من الطين مختفيـــة وراء الحقول ، لا تزعج المنظــر ،

ولا تعلن عن وجود مجتمع يتحدى هذا الامتداد الرحب أو يعوق النظرات التى تخترقه الى ما بعد الأفق .

كل الأشـكال من حوله أفقيـة منبسطة أو عمودية قليلة الارتفاع . لا التواءات ، ولا جبال ، ولا هضـاب ، كل شىء واضح سهل فى هذا البلد ، وهو لا يعنيه كثيرا ما يراه ، فالمنظر يتكرر لسنوات وهو يقطع الطريق الى الاسكندرية منذ أصبح له بيت فيها . منظر رتيب يمرق فيه كالسهم ، واثقا من سيارته ، مطمئنا الى قوة محركها ، ومع ذلك فهو يعيد تأمل ما يراه ، ربما لأنه يفكر فى منصب الوزارة ، ويتهيأ نفسيا للقب الوزير الدكتور فى هـذه البـلاد . نفس الحقول والأشـجار والأفق المنبسط والقرى الصغيرة المختفية وسـط الحقول ، يعرفهـا بحواسه ، ويعرفها بحكم المسئولية التى سوف يتحملها جميل برهان ابن الأسطى برهان الحلاق ، حفيد الأسطى جميل الحلاق .

الحلاق أنجب وزيرا ، ربما ما زالوا يعرفون فى الريف حتى اليوم أهمية الحلاق . ولكن فى القاهرة الأمر يختلف تماما ، من حسن حظه أن أباه مات وهو صغير . لا أحد يعرف أنه ابن حلاق . ولسوف ينتهى المـاضى تماما على يديه ، لقد استطاع أن يصنع من اسمه معنى شاعريا ، انه جميل الأفكار ، جميـل الرأى ، جميل البرهان . انه لتوفيق عظيم أن يقترن اسم برهان

باسم جميل ليكونا معا اسمه . اسم أنيق وسيم . يظن كثيرون انه اسم تركي أو شركسى ، ولقد ساعدت بشرته البيضاء في تغليب هذا الظن . انهم يخلطون بين لقب برهان ، وعائلات برهان المعروفة ، وتعود أن يواجه الذين يسألونه عن أصول وصلاته العائلية بابتسامة بوذية .

وأحيانا يرفع رأسه شامخا بأنفه قائلا فى ثقة وكبرياء : ا جميل برهان لا ينسب نفسه الى أحد . اسألوا الآخرين وامنحوهم فرصة الادعاء بأن لهم شرف الانتساب لجميل برهان

كان مثل هذا الرد يثير الاعجاب والرهبة فى نفوس السائلين ، وكم كانت دهشته أول الأمر ، عندما نما الى علمه أن بعض الذين ينتمون الى عائلات لها نفس اللقب يزعمون أنهم أقارب له .

الآن لم يعد يدهشه هذا الأمر ، فالناس يتشبثون بأي شيء ، حتى لو كان مجرد وهم ، لاقناع أنفسهم قبل اقناع الآخرين بأنهم على صلة قربى أو نسب بالعظماء والمشاهير انه الشعور بالأسرة الصغيرة ، أو القبيلة الأسرة الكبيرة ، هو المصدر الأساسى الذى تستمد منه الناس قدرتهم على الحركة والاتصال والتعامل فى مجتمعنا . ولا أحد مثل جميل برهان يدرك هذه الحقيقة التى تنشب أظافرها فى لحمه وتغرس

مخالبها فى عروقه ، فلا تترك له لحظـــة واحدة من الراحة .

فهو الذى يصنع وجوده الاجتماعى بانكار أسرته ، بالهرب من صلته بها ، بالافلات من الأســطى الحلاق ابن الحـــلاق . انه المحروم الذى يصنع نظريته ويقيمها على قواعد النعيم الذى حرم منه . نعم الأسرة وصـــلة الرحم والنسب . انه وحـــده وسيظل وحده نهاية للمطاف ، نهاية للماضى ، وبداية لمستقبل يبدأ به وحده عندما يرتفع اسمه وزيرا فى البلاد .

فوجىء الأستاذ الدكتور برهان جميل بعجلة القيادة تنحرف فى يده . ولم يدر ماذا حدث . ولكنه استطاع أن يسيطر على السيارة فى الحـــال ، ومن حسن حظه أن الطريق كان خاليا ، لو كانت بجواره ســـيارة مسرعة ، أو عربة نقل أو مقطورة ، لكانت الكارثة .

ما الذى حدث ؟ أهو خلل فى السيارة الجديدة ؟ أم هى لحظة خاطفة من فقدان الوعى مرت به ؟ عجـــلة القيادة سليمة بدليل انها استجابت له فورا عندما صحح مسار الســـيارة . أيكون الخلل بجسمه من ارهاق أعصابه ؟ انها نقطـــة الضعف فيه ، ومع ذلك فمثل هـــذه الحالة لم تمر به من قبل . أهو مرض خبيث بدأ يكشف عن وجوده فى خلايا المخ .

ان ما حدث انذار لا يمـــكنه أن يتجاهـــله . لقد حرص

باستمرار على التردد على أكبر الأخصائيين العالميين فى الأعصاب . البروفسير دوبريه فى باريس ، والدكتور ماندل فى زيوريخ ، والدكتور ملفين فى لندن . انه شخصيا أصبح خبيرا فى كل ما يتصل بالجهاز العصبى ، وهو يتابع أحدث أنواع الدواء فى هذا المجال ، بنفس الاهتمام الذى يتابع به ما تخرجه مطابع العالم فى الفلسفة والمذاهب السياسية . وهو يعرف بدقة أنواع الفيتامينات والهرمونات وتفاعلاتها ويعرفه أنواع المهدئات الكيماوية وتأثيراتها الجانبية . أيكون ما حدث هو مجرد اغفاءه هاجمته لأنه تأخر عن موعد نومه بالأمس بسبب تلك المكالمة التليفونية من الأقصر والتى لم تتم ؟ قالوا له ان الأقصر تطلبه ، وهو لا يعرف أحدا فى الأقصر ، ويعرف تماما أن لا أحد من المسئولين من الشخصيات الهامة التى قد تتصل به قد سافر الى الأقصر . وانتظر وانتظر أن يتم الاتصال ولكن المكالمة انقطعت . ثم عادوا وطلبوه وسمع صوتا يقول له : « هنا وتر بالاس » . ثم انقطعت المكالمة من جديد ، وتركوه حائرا لا يدرى شيئا من هذه الألغاز ، من الذى يريد الاتصال به من وتر بالاس .

ولما يئس من الانتظار ، ذهب الى فراشه وابتلع قرص « التربتيزول » وما كاد يغفو حتى نهض فزعا على دقات جرس التليفون ، وأسرع يستكشف الأمر ، ورفع السماعة لتفاجئه

أصوات مختلطة غير مفهومة ، وأزيز وصيحات حادة ، ثم انقطعت الحرارة عن التليفون •

عندما استيقظ هــذا الصباح مبكرا ، ليهرب من ضجيج القاهرة ومشاكلها وانفعالاتها ، شعر أنه لم يأخذ حظه كاملا من النوم فابتلع ثلاثة أقراص لا قرصين من الفيتامينات والهرمونات، وأدى كعادته التمرينات الرياضية أمام مرآة الدولاب ، وابتسم لنفسه عندما تذكر أنه سيصبح وزيرا ، ولاحظ أنه فى حاجة الى قص شعره ، وهو ما سيفعله بمجرد وصوله الى الاسكندرية ، انه لا يستريح لقص شعره الا فى الاسكندرية عند «ميخاليوس» فى شارع السلطان حسين •

ووقف على الميزان فى الحمام فلاحظ أن وزنه نقص ربع كيلو فأضاف كمية من اللبن الى الشاى ، وطلب من عثمان أن يضيف الى الافطار بيضة مسلوقة ، وأكل بشهية ، ولم يشعر بأية أعراض تنبىء عن أى شىء غير عادى فى جسمه • وقبل أن يغادر مسكنه ألقى بتعليماته لعثمان لينظف الثلاجة ، وزجاج النوافذ ، وينفض الغبار عن السجاجيد ، ويقوم بتلميع الباركيه•

انه يريد أن يعود يوم السبت ليجد البيت يبرق ويلمع ، وأجمل من أى بيت من بيوت أصحابه الذين ربطوا حياتهم بزوجات يشرفن على تنظيف وتجميل البيوت • انه يرفض أن

يقول له أحد فى أية لحظة وفى أية مناسبة : انه لو كان متزوجا لكان بيته أفضـــل • انه يعلم من دون الجميع أن البيت الهادىء المريح ليس هو البيت الذى تسيطر عليه امرأة •

ان السر الذى لا يعلمونه أن نظريـــات الأسرة والزواج والأولاد انما هى نظريات تنتهى حتما الى خلق الرجال الكسالى ذوى الهمم الخاملة • فمهما علت همـــة الرجال فى السياســـة أو الحرب أو الفن ، فالحياة فى الأسرة تنتهى الى تحطيم الرجل واصابته بالخمول اذا لم يصبه الشلل •

ان الرجال لا يدركون أنهم فى الأصـــل مجرد حيوانات كسولة عليهم أداء مهمة الاخصاب ، وهى الوظيفة الوحيدة التى تفرضها عليهم الغريزة لضمان استمرار الحياة ، وبعد ذلك لا قيمة للرجـــال • وهو يعرف هـــذا السر ويحتفظ به لنفســـه ، لأنه لا يستطيع أن يدعو اليه • انك لا تستطيع أن تدعو الناس الى ما لا يطيقونه •

ان مثل هذا السر لا يذاع ، ولكن خاصـــة الخاصة بين الرجال يدركونه ، ويتعاملون به دون أن يعملوا على افشائه ، لأنه لا معنى لأن تلقى بجواهرك أمام الخنازير ، أو تتحدث عن رسالة أعظم للانسان أمام حيوانات لا تجيد شـــيئا ، ولا تهتم بشىء ، سوى أن تنجب مزيدا من الأطفال ، ان النسل يتدفق فى

مجراه ملايين بعد ملايين من البشر ، وبين هـذه الملايين يحدث بين فترة وأخرى أن يكتشف انسان السر ، فلا يسلم حياته لمن يخلفه أو يرثه ، ولا يلقى بمسئولية امتداد حياته على شخص آخر حتى لو كان هـذا الشخص هو ابنه • بل يترك مهمة استمرار الحياة للآخرين ، أما هو فيكون عليه أن يعطى للحياة معنى ، أن يجعل الحياة أجمل ، أن يرقى بالحياة الى مستوى أرفع • وهو الأستاذ الدكتور جميل برهان يدرك تماما هـذا السر ، ولذلك فهو يعطى للناس نظرياتها التى ترتاح اليها ، أما هو فله سره العظيم ، هـذا السر الذى يوشك أن يحمله الى كرسى الوزارة •

كانت آخر تعليماته لعثمان أن يحرص على معرفة من الذى يتكلم من الأقصر اذا عاود الاتصال ، واذا كانت للمكالمة أية أهمية فليبلغ المتكلم أنه مسافر الى الاسكندرية لقضاء يومين وأن يتصل به فى بيته بالاسكندرية اذا شاء •

هكذا مضت الأمور منذ الصباح الباكر كل شىء يسير فى خطه المرسوم له • كل شىء يجرى كما هو متوقع ، فيما عدا تلك المكالمة الغامضة من وتتر بالاس • وهى مهما يكن الأمر لن تكون شيئا ذا بال ، واذا كانت غير متوقعة ، فهى أيضا الاستثناء الذى يثبت القاعدة ، فلابد أن يمر بالحياة الهادئة المستقرة شىء غير

متوقع بين وقت وآخر ، هو فى حد ذاته رغم أنه غير متوقع ، يساعد على تأكيد وجود الاستقرار ويدعم الاحساس به •

ولكن هذه الاغماءة ، أو الدوخة ، أو لحظة فقدان الوعى، رغم أنها مرت بسلام ، الا أنها تنذره بخطر كامن متربص ، ربما فى السيارة ، ربما فى جسمه ، وهذا الخطر يتضخم الآن بسرعة غير مفهومة ، ولا تستطيع أن تصمد له أعصابه رغم أنه حصنها فى الصباح بأقراص الفيتامينات والهرمونات •

سأل نفسه فزعا : ماذا لو تكررت النوبة ؟ ماذا لو سقط مغشيا عليه وهو يقود السيارة ؟ أى ضمان أن ما حدث لن يتكرر ؟ أيوقف السيارة فى الحال ؟ انه يقترب من قويسنا ، ماذا يفعل هنا ؟ أيعود الى القاهرة ويتجه فورا الى عيادة صديقه الدكتور فهمى ؟ أيكون واهما وما حدث هو مجرد سهو نتيجة اندفاعه وراء تأملاته التى نشطت بصورة غير عادية مع توقعه لترشيحه للوزارة ؟

انتبه الى فلاح يلوح له • أوقف السيارة قبل أن يفكر ، ليتبين أن الفلاح يريد أن يركب ، وجد نفسه يمتثل بلا مقاومة ، فتح للرجل باب السيارة وسمح له بالجلوس بجواره •• لم ير الفلاح ، كان يرى أمامه مندوب القضاء والقدر ، رسول العناية الالهية التى أرسلته وقت الأزمة ليجلس بجواره ويطمئنه

فى رحلته • لا مفر من قبول هذا الذى أرسلته له الأقدار ، وان كان يفضل لو كانت الأقدار قد أرسلت له شخصا آخر غير فلاح جاهل ، شخصـــا يستطيع أن يعتمد عليـــه ، طبيبا مثلا تكون سيارته قد تعطلت فى الطريق • فوجىء بالفلاح يعامله كما لو كان سائق ســيارة أجرة • انه يساومه ويقول له انه لن يدفع أكثر من عشرة قروش مقابل توصيله الى بركة الســبع عند الجسر على الطريق ، لن يطلب منه دخول البلد • قال للفلاح : انه ليس ســائق أجرة ، وانه لا يريد منه أى مقــابل • ولكن الغبى لم يفهم •

انه يفسر ما يسمعه بطريقة عجيبة ملتوية ، ويظن أنه يرفض القروش العشرة لأنه يطلب المزيد • دافع الفلاح عن حقه باصرار غبى قــال : انه لا يحمل شيئا ، ويجلس بجواره ويترك المقاعد الخلفية لركاب آخرين ، احتد الدكتور جميل وهو يؤكد للرجل للمرة العاشرة أنه ليس سائق أجرة ، وأنه يسمح له بالركوب مجانا • ونظر اليه الفلاح فى غير فهم ، أو فى غبــاء أعمق من الشك ، وأقصى من الريبة ، غباء عنيد متمسك بأحكام لا يحيد عنهــا • يئس من أن يفهمه الفــلاح • فلاذ بالصمت ، ورضى بالراحــة أو الطمأنينة التى شعر بها مع وجود هــذا المخلوق بجــواره •

ان الحوار الذى دار بينهما شغله عن مخاوفه ، لقد انشقت

الأرض عن هذا المخلوق فى اللحظة التى هاجمته فيها مخاوف عاتية ، لولاها ما كان ليقف بسيارته لهذا الجلف ، ثور من الثيران التى تعيش على الأرض لا هم لها الا تنفيذ أوامر الغريزة ليستمر وجود البشر فى الحياة •

ولكن أى أنواع من البشر يخرجون من صلب أمثال هذا الثور • أفواه تأكل ، وأمعاء تهضم تفرز النفايات ، وغريزة عمياء تفور • ثم لا شيء بعد ذلك •

كم ينفر من هذه المخلوقات التى تزحف طوال الحياة على بطونها كالديدان لا تدرى شيئا عن دنيا العقل والحضارة ؟ انها مهمة شاقة التى سيواجهها فى الوزارة ، أشق من النحت فى الصخر ، ومع ذلك لابد أن يقبل وأن يتحمل المسئولية ، ولن يزعم لنفسه أو للآخرين أنه سيغير الأحوال بين غمضة عين وانتباهتها ، فهو يعرف حدود القدرة البشرية ، كل ما عليه هو أن يرسى القواعد السليمة ، ويخطط للمستقبل ، يكفيه أن يضع الخطة ، قد يحتاج الى خطتين ، خطة عاجلة ، يطلق عليها شعار « خطة الاسعاف » ثم خطة طويلة المدى •

وهذه ستكون للأجيال القادمة عندما تختفى هذه الثيران من وجه الأرض ، اذا كان من الممكن أن تختفى ، ويصبح الريف عندنا كالريف الفرنسى أو السويسرى • ستكون أيامه

الأولى فى الوزارة حاسمة ، عليه أن يكسب تأثير الوهلة الأولى ، أن يكون له حضور وزارى ، لا مجرد وزير جديد ، عليه أن يجذب الانتباه ، ويؤكد الشعور بأنه قادم للتغيير .

صرخ الفلاح ينبهه الى أن الطريق أمامـــه مغلق ، ولولا صرخة الفلاح لاصطدم بحـــاجز خشبى يعترض الطريق معلقة فوقه لافتة تعلن أن الطريق به اصلاح . واستطاع أن يتفادى الحاجز ، وينحرف بالســـيارة الى الطريق الآخر رغم أنه يقود بسرعة غير عادية ، انه ينتشى اذا ما رأى مؤشر السرعة يتخطى المائة والعشرين ، تتجمع لديه مشاعر الانطلاق والاقدام والجرأة والقدرة على الاقتحام والاختراق .

انها ألذ المشاعر التى يتمتع بها وهو يقود سيارته ، ولكن يبدو أن عليه أن يغير بعض عاداته ، ويتخلص من هـــذه المتع القليلة فى حياته ، ولســـوف يأتى منصب الوزارة ليحرمـــه من الكثير من هـــذه المتع ، سيكون لسيارته سائق وساع ، عليه أن يكتفى بالسلطة ، وأن يروض نفسه على التعامل معها ، كما لو كانت هى حبيبته أو امرأته ، عروســـه التى تزف اليه وتأتيه كما يقول الشاعر منقادة تجرجر أذيالها .

ضحك لهذه الصورة منتشيا ، وشـــعر بحيوية تتدفق فى كفيه وذراعيه ورقبتـــه وبطنه . لو كان وحـــده لأطلق عقيرته

بالغناء • وقرر أن يوجه طاقاته الى الفلاح • ما اسمك ؟ ربيع • متزوج ؟ كم زوجة ؟ واحدة فقط •• كيف يا رجل • لماذا لم تتزوج أربعة ؟ عجيب •• أنت تقول ان واحدة تكفى • وأولادك • خمسة • خمسة فى عين العدو • ها •• ها •• ها •• أتعتقد فى الحسد ؟ نعم انه فى القرآن • طبعا القرآن الكريم •• هل تسمع الراديو ؟ والتليفزيون أيضا ؟ مدهش • ألك أولاد فى المدارس • قل لى : ماذا يعجبك فى التليفزيون ؟ تفسير القرآن • والكرة •

لا أمل فى أن يذكر هذا الجلف وجه الدكتور جميل برهان • مع أنه يظهر على الشاشة مرة كل أسبوع منذ شهرين • قبل أن يسأل الفلاح عن المواعيد التى يشاهد فيها التليفزيون • كان الرجل يحدثه عن خبر غريب نشرته الصحف هذا الصباح عن قريته • انطلق الفلاح يتحدث عن حادث اطلاق رصاص نجا منه العمدة • شعر بضيق فى صدره عندما قال الفلاح ان الدافع الى اطلاق الرصاص صبية صغيرة تزوجها العمدة كزوجة ثانية ، وان شابا مهووسا كان يريد الزواج من هذه الصبية هو الذى أطلق الرصاص وقبضوا عليه •

قال الدكتور جميل مشمئزا ان الناس لم تعد تقتل من أجل امرأة ، وان هذا لا يحدث فى أى مكان يرتقى فيه الناس • كيف

تدخل الكهرباء القرية ، ويشاهد أهلها التليفزيون ، ثم يرتكبون مثل هذه الجرائم البدائية ؟

بدا أن الفلاح غير مقتنع تماما بكلام الدكتور جميل ، أو لعله لم يفهم معنى الكلمات ، لأنه شرع يروى الحادث من جديد ، ويتحدث عن هوس الشاب الذى رآه بعد أن أمسكوا به .

سأل الدكتور جميل الفلاح ، اذا كان هناك تفسير لاهتمام رجل بامرأة . حتى يرتكب جريمة قتل ، فقال الفلاح فى هدوء : ان الانسان مثل البئر الغويط ، والله وحده يعلم ما بنفوس البشر . فانطلق الدكتور جميل يشرح للفلاح الذى نسى أن اسمه ربيع رأيه فى أن الأسرة والزواج والأولاد أهم من علاقة بين رجل وامرأة . علاقة يتحكم فيها الشيطان . واستمع اليه الفلاح صامتا ، أو لعله تظاهر بأنه يسمعه ، مما زاد من ضيق الدكتور جميل بالموقف ، كيف يعبر عن نفسه بالطريقة التى تجعله يسيطر على آذان هذا الفلاح . لا فائدة من الوصول اليه أو محاولة اقناعه بشىء .

ان الرجل لا يهز رأسه موافقا الا عندما يسمع آية قرآنية ، أو حديثا شريفا . عندما يصل الى الاسكندرية ، سيراجع قاموس مفردات القرآن ، ويجمع كل الآيات حول الزواج والبنين

والبنات ، كل ما يتصـــل بالأسرة • ولسوف يحفظه عن ظهر قلب استعدادا للامتحان الكبير عند توليه الوزارة •

هذه ضرورة حتمية لا مفر منها • وضغط الدكتور جميل بقدمه على البنزين انه لا يستطيع أن يقاوم الرغبة فى الانطلاق السريع ، وتمنى لو أن الفلاح ترك السيارة وهبط منها ، ثم عاد وخشى أن يظل وحـــده بعد أن يهبط الفـــلاح • انه لن يتركه معرضـــا لاحتمال وقوع نوبة أخـــرى فقط ، بل سيتركه ومعه أخبار الرجال الذين يتصارعون على النساء •

هذا الصراع الذى لم يعرفه أبدا فى حياته • انه لم يتورط فيه الا مرة واحدة ، تلك الطالبـــة التى كانت تعد للماجستير ، استطاعت أن تجذبه بمهارة عجيبة للتفكير فى ذلك الشىء البشع، الارتبـــاط بامرأة ، لكن النفور الـــذى كان ينهمش أعماقـــه ازداد شراسة كلما تورط معها فى الوعود • وعانى من الأرق ليالى طويلة وهو يترقب امتحان الزواج • وبذل من الجهد فوق ما يتصوره البشر ، قرأ عن المرأة والحب والجنس ، ولجـــأ الى أطباء الأعصاب ، وتحدث معهم ، ورحبوا بأن يتركوا مرضاهم ينتظرون ، ليناقشوه ويجيبوا على أسئلته عن الفرق بين المرض العصبى والنفسى والعقلى ، وهل هنـــاك فرق صحيح • أم هى زوايا مختلفة لقضية واحدة ؟

وناقش معهم أنواع العلاج ، وفائــدة المواد الكيميائية . وهل هنالك احتمالات لتصحيح ضعف الأعصاب بالجراحة ؟ وكلما طمأنه الأطباء زاد قلقه ، وكلما نصحوه بخوض التجربة بشجاعة، جبن وفتك به القلق . قال له صديقه الدكتور فهمى : ان المشكلة فى دماغه ، وليست فى أى مكان آخر . وان ما يريد مناقشته هو موضوع لا صلة له بالأفكار والمناقشات العقلية . انك لا تحب المرأة بالاقناع والمناقشة . ولا تقيم بيت الزوجيــة على دعامة الأفكار وحدها ، ومهما ناقشت زوجتــك وتفلسفت معها فلن تنجب لك ولدا ولا سمكة صغيرة .

. فصرخ فى فهمى انه لا يقبل أن يكون حيوانا أو ثورا مثل بقية الثيران ، وكان فهمى من القلائل الذين واجههم الدكتور جميل برأيه الحقيقى المضــاد تماما لنظرياته المعلنة عن الأسرة ، قال لفهمى : ان الصلة بين التكاثر وخصــوبة التناسل وانحطاط الكائن العضــوى الحى قائمة ولا سبيل الى إنكارها ، فأكثر الكائنات الحيــة تكاثرا هى الكائنات الأميبية والجراثيم التى تتوالد بالملايين والبلايين ، أما الكائنات العليا الراقية فتوالدها محدود ، والقمة الانسانية لا تتوالد بالجنس بل تتوالد بالأفكار، فرجل العلم أو رجل الفن أو رجــل الدين ، جميعا لا ينقلون علومهم أو فنونهم أو تقواهم الى البشرية عن طريق رحم المرأة .

ان المواهب والنظريات والتفسيرات والمذاهب الدينية التى

تسعد البشر ، وتجعل لبقائهم فى الحياة معنى لا تكون بالتناسل .والشعوب المتحضرة لا تتناسل بنفس الكثرة التى تتناسل بها الشعوب المتأخرة . ان المرأة كانت وما زالت أداة الشيطان الذى يستخدمها فى غواية الرجال ، ليتركوا رسالتهم المجيدة فى الحياة . انه نفس الأسلوب الذى استخدمه ابليس ليخرج آدم من الجنة عن طريق حواء .

والدول الكبرى لا يصيبها الانحلال والتدهور الا بسبب المرأة .. هذه حقيقة لا ينكرها أحد . لقد شهد بنفسه سر تدهور أوربا بعد أن رأى بعينيه كيف تفشت فى مجتمعاتها العلاقات غير الشرعية والصلات المحرمة ، وساد الانحلال والتفسخ بانشغال الرجال بالبحث عن النساء ، وانشغال النساء بغواية الرجال .

كل رجل يتخذ عشيقة ، وكل امرأة تقيس درجة جمالها بقدر ما تستطيع أن تغوى من رجال .. هذا هو الذى جعل فرنسا تركع أمام جيوش هتلر فى أيام . وهذا هو ما قضى على هتلر الذى استسلم لغواية عشيقته ايفا براون . ونفس الكارثة لموسولينى مع عشيقته كلارا ، وهذا هو ما جعل الالحاد والكفر يسود مجتمعات شرق أوربا ليعيش فيها الناس عبيدا للمادة والاباحية .

كانت للدكتور جميل قصة يرويها ولا يمل من تكرارها ، يرويها أحيانا باختصار ويرويها أحيانا بتفاصيل دقيقة ، وقد يعلق عليها ، أو يكتفي بنظرة حزينة ويمط شفتيه ، معلنا اشمئزازه بما هو أقوى في التعبير من أي كلمات .

كانت قصة يعتمد عليها كضربة قاضية يوجهها ليحسم أية مناقشة ، وكان يكسب بها المؤيدين المعجبين بحملاته الضاريه ضد الانحلال الذي يهدد الأسرة ، الدعامة الأساسية لأي مجتمع .

انها قصته مع أستاذ فرنسي زميل له في السوربون . كان لا يذكر اسمه الا في مناسبات خاصة ، ويكتفي غالبا بأن يبدأ قصته قائلا : أعرف أستاذا فرنسيا مشهورا جدا ، له مؤلفات يدرسونها في أشهر جامعات العالم ، وهو زميل لي ، ويحاضر مثلي في الفلسفة ، وكلمته مسموعة في كل مكان . ولكن لا داعي لذكر اسمه لأن القصة التي سأرويها محرجة ، وأنا لا أريد أن أطعن بها زميلا أحترم رأيه ، كل ما أريده هو أن أشخص مرضا عضالا في المجتمعات الغربية يجب أن ننتبه اليه .

وبعد أن يطمئن الدكتور جميل الى انه سيطر على آذان سامعيه ، يروى كيف أنه ذهب ليزور زميله ذات يوم في بيته بشارع دومنيك بجوار الكتدرائية . وهناك واجه نموذجا

للانحلال الذى تمكن من روح أوربا • كان الأستاذ الفرنسى يحتفظ فى بيته بعشيقة له تعيش معه ، وكانت زوجته تحتفظ فى نفس البيت ، بيت الزوجية بعشيق لها • شىء بشع لا يمكن لانسان أن يتصوره • بل انه لا يوجد فى الدنيا مدنية أو حضارة ، مهما قلت انها تقدم لك من وسائل الرفاهية ، يقبلها الانسان • اذا كان ثمنها هذا الانحلال البهيمى • كان الأستاذ الفرنسى قد حدد له موعدا لزيارته ليخرج معه وزوجته فى جولة بباريس •

فلما دخل عليه وجده جالسا فى حجرة مكتبه وتحت قدميه عشيقته، فتاة صغيرة لا يزيد عمرها عن الثامنة عشرة ، ترتدى برنسا فوق جسدها العارى ، وكان شعرها الطويل مبللا ينسدل على كتفيها ويسقط فى حجرها ، وهى جالسة تحت قدمى الأستاذ أمام المدفأة • قطة مدللة مستكينة ترقد عند قدمى صاحبها •• وكان الأستاذ هادئا ناعما ، لم يكلف نفسه بالوقوف وهو يرى زميله المصرى واقفا متسمرا عند الباب • وقال وعيناه تبتسمان فى اطمئنان واسترخاء وقح :

ـ اعذرنى يا عزيزى مسيو برهان • فلن أستطيع الخروج معك • فكما ترى حدثت فى بيتنا تطورات مفاجئة • فلقد جاءت حبيبتى ، وسأضطر لقضاء ليلتى معها •

« هكذا بصراحة وقحة يسمونها فى بلادهم حرية ، اعترف لى الرجل متباهيا بهذا الانحلال الأخلاقى » .

حاول الدكتور جميل أن يقول كلمة ، ينطق بحرف ، يخرج صوتا من حلقه أى صوت ، ولكنه كان مشلولا تماما أمام منظر تلك الحبيبة المبللة الشعر التى خرجت لتوها من الحمام . بعد أن أقام الشيطان أفراحه ، وزفها الى عشيقها .

وكانت البنت لا تلتفت اليه ، ولا يهمها أن غريبا يطل عليها ، بل لعلها تعمدت أن تظهر مفاتنها أمام الغريب ، فأحنت رأسها المبلل وأسندته على ركبة عشيقها وطوقت ساقيه بذراعيها تضغط عليهما بثديها وقد أعطت للزائر ظهرها ، وانحنى الأستاذ الولهان يمسح بيده على شعرها المبلل ويقبلها . ثم رفع رأسه ونظر الى الدكتور مسيو برهان كأنه يوبخه لبقائه طويلا ، لولا أنه استدرك قائلا :

ــ ستخرج مع زوجتى . انها تنتظرك .

ثم غمز الأستاذ بعينه وقال :

ــ هى أيضا معها الآن عشيقها . ولكنها ترحب بالخروج معك ومع جورج .

تراجع الدكتور جميل ذاهلا وقد طرق أذنيه هذا الكلام

الغريب ، وهو يسأل نفسه اذا كان الأستاذ قد جن ، أو أنه هو الذى جن ويعانى من كابوس سوف يفيق منه ، ولكنه كان لا يحلم • وسمع صوت الزوجة تناديه ، حاول أن يعتذر لها • ولا يدرى ماذا قال لها ، وماذا قالت له ، كان ارتباكه قد تحول الى ذهول تام •

الموقف كله يتحداه ، ويستفز مشاعره ، بل يتحدى كل القيم التى يعمل من أجل نشرها الآن بين أبنائه الطلبة فى المحاضرات التى يلقيها عليهم فى الجامعة ، أو يعمل على نشرها وتدعيمها بين جمهوره العريض فى الصحف والاذاعة والتليفزيون• ان مواقفه وحملاته الأخلاقية التى أكدت مكانته ، وأرست قواعد شهرته بين الجماهير ، قد تفجرت منذ تلك اللحظة الرهيبة التى مر بها فى بيت ذلك البروفسير الفرنسى فى بيته بشارع دومنيك ، بين الانفاليد وحى سان جرمان دى بريه • رأى بعينه الانحلال الذى يجعل أوربا تتقاتل فيهلك الملايين لتتحول فيما بعد الى دول من الدرجة الثانية والثالثة • رأى الانحلال الذى امتزج بالكفر أنجبته المذاهب المادية ، ورأى الانحلال الذى امتزج بالاباحية ، والفوضوية ، وعقاقير الهلوسة ، وعصابات الارهاب •

وأيقن منذ تلك اللحظة أن هذه المجتمعات سوف تنهار لأنها سقطت فى هوة لا خلاص منها • انه يذكر تلك الزوجة

الفرنسية فى تلك الليلة ومعها عشيقهـا جورج الذى يصغرها بسنوات ، وهم يطوفون به ملاهى باريس ، وهو ذاهل بلا حول ولا قوة ، لا يكاد يفهم شيئا مما يقولون أو يفعلون ، فى أعماقه مرارة ، واحساس أليم بأنه بمصاحبته لهذين الفاجرين يقوم بمهمة مشينة تستنكرها الأخلاق والقيم الحميدة •

اتنهوا به الى الليدو فى الشانزليزيه ، حيث اندمجت المرأة فى الرقص مع جورج ، تقبله علنا أمام الجميع ، بينما جلس يتلفت برأسه يمينا ويسارا لا يدرى أين يخفى عاره ووضعه المهين ، حتى جاءته تلك المرأة الفاجرة ، تهتف به •• لمـاذا أنت حزين يا مسيو برهان ؟ هيا نرقص •• أتريد أن تغويـه هو الآخر ، تضمه الى زمرة أهل ابليس ؟ رفض أن يرقص معها ، وتعمد أن يخاطبها بخشونة وأن يتجاهل عشيقها حتى أطلقا سراحه وأفلت منهما •• هـذه القصة يعرفها كل من اتصل بالأستاذ الدكتور جميل برهان ، فهو لابد أنه استمع اليها فى شـكل من أشكالها المتعددة التى يختار أن يبرزها من خلاله •

أحيانا يسترسـل فى وصف عشيقة البروفسـير ، فيعرف السامعون أن شعرها الطويل أسود ، وانها أقرب الى أن تكون أسبانية ، بشرتهـا خمرية ، عيناها سـوداوان دعجاوان كعينى بقرة ، وجسمها طويل ممشوق ممتلىء قليلا ، وهى فتنة عرف الشيطان كيف يختارها بحذق شديد ليسلب عقل رجل من ألمع

رجال الفكر الفرنسى ، حتى يستخدم فلسفته فى تحطيم القيم والأخـلاق •

وتتعدد أوصاف جورج ، فهو أحيانا يشبه الملاكم ، وكان فى فترة ما يوصف للسـامعين بأنه يشـبه الممثل الأمريـكى ميكى رونى ، وعندما ذاع اسم « جيمس دين » أصبح جورج من عينة « جيمس دون » وكان اسمه أحيانا « جورج دون » وقد يبتسم الدكتور جميـل ساخرا وقد مط شفتيه فى احتقار ويضيف شارحا « جورج دون » على وزن « جيمس دون » ، وفى السنوات الأخيرة أصبح اسمه « جورج ترافولتا » وتكرر هذا الاسم فى الحملة الأخيرة التى يقودها الدكتور جميل فى ندواته التليفزيونيـة • وهو يتحدث فى حملتـه مستعينا بهذه القصة التى يرويها لمشاهدى التليفزيون باختصار شديد ، ليؤكد أنه من أصحاب الخبرة فى الحديث عن قضية التفكك الأسرى ، لأنه رأى الفساد بعينه ، وشاهده فى عقر داره ، واختلط به ، ولديه من الحكايات أو الخبرات ما يستطيع أن يرويه ويقنع به •

اضطر الدكتور جميل أن يضغط على فرامـل سـيارته برفق ، وقد اعترضت طريقه مقطورة تحمل بالات قطن • كان الفلاح صامتا يرقب الطريق أمامه فى استسلام مطلق ، وجاءت سيارة بيجو أجرة من خلفه تزاحمه ، وأطلق سائقها بوق سيارته

فى الحاح ، وكاد الدكتور جميل أن يجن • ما الذى يريده هذا السائق ؟ هل يريد منه أن يتخطى المقطورة ؟ كيف ؟ أم لعله يريد منه أن يهبط بسيارته فى الحقل المجاور ليسمح لحضرته بأن يتخطاه ، ثم يسير هو خلف المقطورة •

انه لا يقبل هذا التحدى الوقح ، وهو عادة يكسر أنف من يضايقه على هـذا النحو بأن يطلق العنان لسيارته ، ولكنه يعرف بخبرته أن « البيجو » تستطيع أن تسبقه ، ولذلك يرفض الدخول معها فى عملية تحد ، ويكتفى بأن يسب سائقها بينه وبين نفسه • نظر الى السيارة فى المرآة ، فرآها تهاجمه من الخلف ، واقتربت منه وحاذته خلف المقطورة ، وسارا جنبا الى جنب ، تهجم واقتحام ورعونة وقلة أدب • عليه أن يتحمل فى صبر كل هذا خشية أن يؤدى تهور سائق البيجو الى مصيبة من حيث لا يدرى •

الناس أصبحوا كلابا مسعورة • لا يطيق أحدهم الآخر • يتدافعون بالأكتـاف ، يتسابقون ويتصـارعون ويتشاتمون ، لا يطيق أحدهم الآخر • نفوس مريضـة ، هـذا هو الذى انتقل الينا مع ما يسمونه مدنية • السيارة يقودها الآن كل من هب ودب • لا احترام لتقاليد القيادة ، ولا فهم لطبيعة الآلة التى يستخدمونها ولا رقابة من شرطة المرور ، سـوف تنتهى

قريبا هذه المرحلة من حياته ، وسيركب السيارة التى لا يجرؤ على تحديها أحد •

سمع الفلاح ينبهه فى قلق الى أن الذين بالسيارة المجاورة يشاورون ويتصايحون • التفت بسرعـة ، ثم عاد ونظر أمامه خشية أن تفلت منه عجلة القيادة ، فلم ير شيئا • ولكن الفلاح عاد يقول وقد زاد قلقه أنهم يلوحون لهما • لمـاذا يلوحون ؟ لا صلة له بهم ، أبينهم من عرف من هو من التليفزيون ؟ أغلب الظن أن هـذا هو السبب ، ولكن الفلاح يقول انهم يريدون ايقافه السيارة •

لمـاذا ؟ أيكون قد حدث شىء يريدون تنبيهه اليه ؟ الحقيبة الخلفية مفتوحة ؟ أو اطـار يوشـك أن يفرغ منه الهواء ؟ أم هناك شىء أخطر ؟ فقد انفجر فى رأس الدكتور جميل خاطر أزعجه • ان السيارة البيجو تطارد سيارته لأن هذا الفلاح الذى يجلس بجواره هو المجرم الذى أطلق الرصـاص على عمـدة القرية ، وأنه هارب معه فى سيارته • لو صح هذا فهى الفضيحة التى قد تؤدى الى ضياع كل آماله فى الوزارة •

ولكن ، أهـذا معقول كان سائق البيجو ما زال يطـلق بوقه ، ونظر الدكتور جميل بقدر الامكان الى ركاب السيارة ، فرأى وجها يلوح له مبتسما • انه وجه غريب لا يعرفه ، معجب

سخيف ممن يشاهدونه فى التليفزيون ، ولكن لا • انه يعرفه • مع النظرة الثالثة فوجىء لدهشته أن الوجه الذى يطل عليه من البيجو هو وجه البروفسير جاستون •

نعم بكل تأكيد انه مسيو ارمان جاستون • هل هذا معقول ؟ كان منذ لحظات يفكر فيه • الرجل الذى جعل من قصته هو وزوجته المستند الرئيسى فى حملاته الأخلاقية على انحلال المدنية الغربية •

ما الذى جاء به الى هذا الطريق ؟ انه لم يزر مصر أبدا ، ولم يخطره بأنه قادم الى مصر • ما معنى هذه المصادفة العجيبة • كأنه استدعاه بخواطره • كأن هذا الفلاح قد أطلق بأخباره عن حادث العمدة ، تيارا من الخواطر والذكريات التى تداعت حتى وصلت الى البروفسير جاستون فى باريس ، فحملته على بساط سحرى ، ليأتى فى لمح البصر ، ويراه بلحمه ودمه وعظامه فى سيارة مجاورة فى الطريق الزراعى الى الاسكندرية ، بين قويسنا وبركة السبع •

انحرفت المقطورة ، وأفسحت الطريق أمامها ، فتقدمت البيجو ثم وقفت ، ووقفت خلفها سيارة الدكتور برهان جميل ، وهبط جميل وجاستون ليتصافحا • كان البروفسير فى حالة مرح شديد ، انه سعيد بهؤلاء الركاب الذين ما علموا عن طريق واحد منهم يعرف الفرنسية ، أنه رأى فى السيارة صديقه الذى

يريد أن يلقاه فى الاسكندرية ، حتى صمموا على تحقيق غايته فى الحال . انهم يقدرون يا عزيزى أهمية الصداقة ، ويفرحون بها . هذه نعمة كبرى فى بلادكم .

دفع البروفسير لسائق البيجو أجرته ، وحمل حقيبة صغيرة الى عربة زميله جميل برهان ، وهو يقول له انه حاول الاتصال به من الأقصر . طلبوا منه أن يلتقى به فى مهمة عاجلة . دعوة الى ندوة البحر الأبيض المتوسط التى تقام فى باريس فى الشهر القـادم .

وتوقف البروفسير عند الفلاح ، وأحنى له رأسـه محييا بالفرنسية . رد الفلاح التحية ، بأن فتح له باب المقعد الخلفى للسيارة وهو جالس مكانه فى المقعد الأمامى ، فصـاح الدكتور جميل غاضبا ، وكأنه يرى الفلاح لأول مرة ولا يدرى من أين جاء ، ولا السبب الذى جعله يتجرأ ويركب عربته .

كانت مشاعر وخواطر مضطربة تضج مشوشـة فى رأس وصدر الدكتور جميل ، بماذا يفسـر للبروفسير وجود هـذا الجلف رث الثياب بجواره فى سيارته الخاصة ، سيظن البروفسير أنه قريب له . سيسخر منه ومن انحطـاط بيئته الاجتماعيـة . لمـاذا لا يتحرك هـذا الحيوان وينتقـل الى الخلف ؟ لمـاذا لا يترك العربة ويختفى من الوجود ؟ أى مصيبة جاءت به ؟ انه

لشيء مخجل حقا أن يلتقي البروفسير بمثل هـذا المخلوق الذى ينطق بالغباء والجهل • هتف فى الفلاح أن ينتقل الى الخلف أن يتحرك بسرعة ، ألا يجلس جامدا مكانه ، ولكن الفلاح لم يفهم ما الذى يعنيه ذلك السـائق الذى جن فجـأة • ووقف البروفسير يرقب الموقف ، وقد ارتسمت على وجهـه ابتسامة غامضة لعلها ساخرة •

وجذب الدكتور الفـلاح من يده يأمره أن ينتقـل الى الخلف ، فاعتذر الغبى لأنه فى رأيه لا يصح أن يجلس هـذا الخواجة الغريب بجوار السائق • فلما ألح عليه الدكتور جميل رفع الفلاح صوته مستريبا : انه لن يقبل أى زيادة فى الأجرة اذا ما انتقل ، وجلس وحده فى المقاعد الخلفية للسيارة •

فصاح الدكتور جميل منفعلا : انه لن يأخذ منه مليما • انه يقسم أن لن يطالبه بشيء • لقد قبل أن يركب معه لوجه الله ولا شيء غير ذلك • كان الدكتور يتصبب عرقـا ، وانفعالاته تزداد ، ووجهه يحتقن ، وبينما ينتقل الفلاح من المقعد الأمامى الى المقعد الخلفى شم الأستاذ الدكتور رائحة عطنة تفوح من ملابسه • رائحة تبن أو روث بهائم • رائحة فلاحين على أية حـال •

وكان البروفسير يردد بالفرنسية طوال الوقت أنه لا يريد

أن يزعج المسيو الذى هو الفلاح ، فيتجاهل الدكتور جميل أنه يسمعه ، بل كان فى هــذه اللحظات يتعامل مع الفــلاح وقد انصرف تماما انتباهه عن البروفسير ، لأنه لو فكر فيما يعتقد أن البروفسير يفكر فيه لانفجرت شرايين مخه وسقط مصعوقا . انها أزمة من تلك الأزمات العنيفة التى تمر بالانسان . كارثة وفضيحة حقيقية عليه أن يبذل مجهودا خرافيا لينساها ، ويمحوها تماما من ذاكرته .

وكان هم الدكتور جميل الآن أن ينظر فى فزع باحثا عن البراغيث أو القمل فى المكان الذى كان يجلس فيه الفــلاح . هل شاءت الأقدار أن تفرض عليه أستاذ السوربون ليجلس فى عربته الفيات الجديدة التى كان يتفاخر بها منذ قليل ، ليكتشف البروفسير أن البراغيث تمص دمه ، والقمل يزحف فى ملابســه الممضاة باسم أكبر صانعى الأزياء الباريسيين ؟

ان الرجــل قد يجن ، وقــد يرفع عليــه قضــية مطالبا بالتعويض . انهم متهورون مجــانين هؤلاء الفرنسيون ، واذا أرادوا كانوا فى منتهى قلة الأدب . أهكذا يقابل الرجل الذى جاء وراءه ليطلبه فى مهمة رسمية عاجلة فى باريس ؟ يا للفضيحة .. يا للعار .. أخرج منديله من جيبه بيد مرتعشة وهجم على المكان الذى كان يجلس به الفلاح ينفضــه ويتفحصه ، والبروفســير

يسأله فى دهشة ماذا يفعل ، وهو يتجاهل تماما وجود البروفسير وأسئلته . ثم التفت اليه اخيرا ودعاه للجلوس .

فلما استقر البروفسير فى المقعد بجواره ، كان الدكتور جميل فى ذروة انفعاله ، يردد بلهجة آلية آسفة ، أنه لا يعرف هذا الشخص ، ولكنه اضطر الى أن يأخذه معه فى الطريق ، نعم كان مضطرا بعد أن جاءه رجال الشرطة ، واعترضوا طريقه ، وتوسلوا اليه أن ينقله ، يبدو — هكذا مضى الدكتور جميل فى تأليف قصته — يبدو أن جريمة حدثت فى قرية هذا الرجل ، ويبدو أنه مكلف بالذهاب الى قرية مجاورة سنصلها حالا لأمر هام .

بدا الدكتور جميل يسترد بعض سيطرته على أعصابه ، وهو يتمادى فى تأليف قصته مصورا نفسه مواطنا يقوم بواجب وطنى فى خدمة بلاده ، وتلبية لطلب رجال الشرطة . ولكنه غير مطمئن تماما للرجل ، فمن يدرى ما دور هذا الفلاح فيما يرويه من أحداث .

اهتم البروفسير جاستون بهذه المعلومات ، وقال لجميل برهان ، انه لا داعى لعدم اطمئنانه ما دام الشرطة هم الذين طلبوا منه نقل الرجل ، وربما كان متعاونا معهم ، ثم أردف ضاحكا :

ـ اذن .. فهناك جريمة عاطفية .. اوه .. لا .. لا هذه هي الجريمة التي لن يخلو منها مكان في العالم .. ولن تختفي في زمن من الأزمان . أليس كذلك يا عزيزي مسيو برهان ؟

ضحك العزيز برهـان في عصبية موافقا على كلام العزيز جاستون ، وقد نسي تماما رأيه السابق ، وأنه منذ وقت قصير كان يبدي اشمئزازه لهذا الفلاح الذي يجلس خلفه ولا يعرف عن وجود مثل هذه الجريمة التي هي مظهر من مظاهر التخلف .

وسأله جاستون فجـأة ، اذا كان يستطيع أن يتحدث مع الفلاح ، منبها مسيو برهان الى أنه تأخر في تقديم كل واحد منهما للآخر ، ولم ينتظر جاسـتون الاجابة على سؤاله ، فقد التفت الى الفلاح ، وقال له بالفرنسية ان اسمه آرمان جاستون وانه سعيد جدا بلقائه .

قال الدكتور جميل للفلاح ان الخواجة يريد أن يتحدث اليه ، وانه يقول له ان اسمه آرمان جاسـتون ، وهو يريد أن يعرف اسمه . فقال الفلاح بسرعة أن اسمه ربيع عبد ربه ، وأهلا وسهلا ومرحبا بالخواجة .

وألقى جاستون أسئلته مباشرة للفلاح . انه يريد أن يعرف شعوره نحو الأجانب ، ما رأيه ؟ هل يعتقد أنهم أشرار ؟ هل

يكرههم ؟ هل يتصورهم مستعمرين ؟ حاول الدكتور جميل أن يترجم بدقة أسئلة جاستون ، واستمع ربيع عبد ربه الى ما يقوله الدكتور ، ومضت لحظات وهو لا يجيب •

وقال الدكتور لزميله انه يعتقد أن الرجل لم يفهم الأسئلة، فهمس جاستون أنه يلاحظ انه يفكر ، وبالفعل أجاب ربيع قائلا : انه يعتقد أن الخواجة رجل طيب ، وأنه يلاحظ سماحة وبشاشة في وجهه • ترجم الدكتور اجابة ربيع ، فهز جاستون رأسه باسما ، وقال له : أنت رجل ذكى • فقد أعدت صياغة سؤالى • ورفضت أن تصدر أحكاما عامة تتورط فيها واكتفيت بأن تتحدث عن مشاعرك الطيبة نحوى •

وترجم الدكتور جميل كلمات جاستون بلهجة ساخرة ، فقال لربيع : ان الخواجة لا يسألك عن نفسه ، وانه يسأله عن جميع الخواجات • فقال ربيع باسما : انه لا يستطيع الاجابة على هذا السؤال ، لأنه لا يعرف جميع الخواجات ، ولكنه يعرف أن فى بلادهم أشياء حلوة كثيرة •

وأصر جاستون أن يعرف هذه الأشياء الحلوة التى يعجب بها ربيع ، فقال على الفور : ان أهم شىء فى رأيه هو الأدوية ، ثم قال فى مرح مخاطبا الدكتور جميل : قل للخواجة ان بلادهم

حلوة بنسائها • وضحك جاستون مهللا ، وسأل ربيع اذا كان يريد أن يتزوج واحدة منهن ، فقال ربيع وقد تهلل وجهه أن هـذا هو منى العين • نظر الدكتور جميل الى جاستون بغيظ لا يدرى كيف يخفيه ، وتفرس فى وجه جاستون ، واستراح بعض الشىء لرؤيته علامات الشيخوخة وقد تسربت الى ملامح هـذا الفرنسى الداعر • وألقى جميل برهـان نظرة الى مرآة السيارة ، يبحث عن علامات مماثلة فى وجهه ، ولكنه ما كاد يرى وجهه حتى نسى ما الذى كان يبحث عنه بنظراته •

وسمع جاستون يسأله اذا كان قد تزوج ، كان يسـأله فى وقاحة ، فأجاب باقتضاب أنه لم يتزوج ، ولا يظن أنه سيتزوج فاسترسل جاستون فى وقاحته يسأله كيف يمتنع عن الزواج ، فى بلاد يعرف أنها تنظر بغير فهم ، أو ربما عدم ثقة ، الى الرجال غير المتزوجين •

ثم أضاف جاستون : انه حتى فى بلاده يوجد من يتشككون فى غير المتزوجين •

يا لجرأة الرجل • هـذا الذى يعيش فى العار ، هذا الذى جعل من بيته وكرا للفجور والفسق يتحدث عن أهمية الزواج • قال برهان بلهجـة قد تكون جافة ، انه لا يعجبه الزواج على الطريقة الفرنسية ، ولا الزواج على طريقة ذلك العمدة الذى

أطلقوا عليه النار • ثم قـال فى كبرياء : « دعونى أتفرج عليكم أيها المتزوجون » ••

واستولى على الدكتور جميل شـعور جارف بالرغبة فى تحطيم هـذا الفرنسى ، رغبة مجنونة ، ملحة ، وقال للفلاح : ان هذا الخواجة الذى تقول عنه أنه طبيب جاء من بلاد لا تعرف الشرع ولا أحكام الدين ، نساؤهم لا يعرفن عفة ولا طهـارة ، فقال الفلاح فى هدوء : ان الخواجة رجل طيب ، فصـاح فيه الدكتور جميل : أتخشى شيئا أيها الرجل ، انه لا يعرف لغتنا •• ولن يؤذيك لو قلت عنه أى شيء • فقـال الفـلاح فى اصرار غبى : ان بعض الظن اثم •

وأشار الى الطريق منبها الدكتور جميل الى أنه وصـل الى الجسر فى بركة السبع • ووقفت السـيارة ، وهبط ربيع عبد ربه ، ومد يده بورقة القروش العشرة ، فرفض الدكتور أن يمد يده ويأخذها ، وقال له غاضبا : توكل يا رجـل ، واذهب لحالك • فمد ربيع يده يصافح الخواجة ، وانطلقت سـيارة الدكتور تفلت من هـذا المكان ، تنجو من هـذه الفضيحـة المتمثلة فى هذا الفلاح ذى الرائحة العطنة

وسأل جاستون عن الورقة المـالية التى أراد أن يقدمها الفلاح لصاحبه ، فقال له جميل : ان الرجل يتوهم أنى مجرد

سـائق مثل سائق السـيارة البيجو التى كان يركبها . قـال جاستون : انه لا يظن أن هذا هو ما يرمى اليه مسيو « رابى » ، وأنه فى حقيقة الأمر كان يعرض أجرة ركوبه ، لأنه يحترم العمل ، ويتصرف كما يتصرف أى رجل شريف . وأن هـذا التعارف الذى تم بينه وبين هذا السيد قد كشف له عن هوة حضارية وثقافية كبيرة بين رجلين ينتميان الى بلد واحد . فتنهد الدكتور جميل ، وقال وهو يستعد لأن ينقل للبروفسير الفرنسى أنبـاء ترشيحه للوزارة : انه ما زال أمام البلد الكثير . فاذا بالبروفسير يقول له أنه يشعر أن هـذه هى الكلمات التى يود أن يقولها مسيو رابى ، لأنك يا عزيزى مسيو برهان لم يعد أمامك شىء بعد أن وصلت الى قمة المجتمع ، فقال له مسيو برهان ساخرا انه واهم ، ولا أكتمك يا عزيزى البروفسير سرا ، فأنا أستعد لتولى الوزارة ومواجهة أعبـاء خطيرة ، وهنا هتف جاستون فجأة : آه .. فهمت الآن لمـاذا طلبوا منى الاتصال بك فورا !

وثب قلب الدكتور جميل برهان وهو يسـأل من هؤلاء الذين طلبوا من البروفسير أن يتصل به ، فقال له : ان السفارة هى التى أبلغته وهو فى الأقصر بضرورة هذا الاتصال ، وضحك جاستون قائلا : انهم لابد أن سمعوا بأنباء ترشيح مسيو برهان للوزارة . فهمس الدكتور جميل برهان بأن مثل هـذه الأنباء تتسرب بسرعة .

وأحيانا يكون ذلك قبل الأوان ، ثم أضاف بلهجة حزينة انه يتمنى لو كانت لدى الادارة المصرية هـذه القدرة على العمل بمثل هـذه السرعة ، فأنتم لا تضيعون وقتكم أبدا • وقـال جاستون بلهجة غامضة ، وكأنه يفكر فى شىء يقلقه : انه ليس واثقا تماما من كل ما يفعلونه ، وان هـذا النشاط قد يكون مجرد جرى لاهث وراء أوهام • ثم تغيرت لهجته وسأل بصورة عملية : هل تقبل الدعوة يا عزيزى برهـان ؟ هل أبلغ سفارتنا بموافقتك ؟

فأجاب برهـان أنه يقبل مبدئيا •• الا اذا جدت ظروف أخرى •• فهتف جاستون أن الوزارة لن تعدل شيئا من البرامج فالدعوة مستمرة •• بل ستكون فى غاية الأهمية •• فردد برهان موافقا •• نعم •• نعم •• لاشـك فى هـذا يا عزيزى مسيو جاسـتون •

وهنا سأله جاستون ، اذا كان يستطيع أن يذهب به الى أقرب مكان يستقل منه سـيارة أو قطـارا الى القاهرة • انه لا يستطيع أن يواصـل الرحلة الى الاسكندرية ، بعد أن انتهى من مهمته ، ويريد أن يكون فى باريس بعد يومين • سيحتفل بعيد ميلاد حفيده • لقد أصبحت جدا لحفيد وحفيدة يا عزيزى• قال برهان فى عصبية : انه لابد يشعر بالشيخوخة • فاعترض

جاستون على ذلك ، وقال : ربما ابنتى ايزابيل هى التى تشعر بها . وفجأة التفت الى الدكتور جميل برهان وقال له : أنت تعرف ايزابيل . لقد رأيتها . فقال برهان محاولا أن يتذكر ، انه لا يظن انه رآها .

فقال جاستون انه واثق أنه رآها فى بيته . فهو لن ينسى ذلك اليوم ، عندما جاءت ابنته لتزوره وجاء جورج ابن زوجته ليزورها . كيف تنسى تلك الليلة يا عزيزى ؟

اندفع الدم الى وجه الدكتور جميل وشعر به يضغط على عينيه ورأسه ، ولم يعد يسمع . الرجل يهذى . يكذب . واستمع الى كلمات تصك أذنيه على الرغم منه . حياتنا ليست سهلة يا عزيزى برهان . نحن جيل الحرب العالمية .. ماتت زوجتى وهى فى بيتها بقنابل الألمان . وأنا نجوت من الموت فى الأردين . ونجوت من الموت فى صقليه . ونجوت من الموت فى انزيو . كانوا يموتون من حولى ولا أموت . وعدت من جبهة القتال لأجد ايزابيل فى ملجأ . أما سوزان فمات زوجها فى تونس ، وتركها مع ابنها جورج . بعد الحرب لابد أن نعيش بذكرياتنا وآلامنا . نحن الأحياء تتقارب وتتساند . يوم جئت لزيارتنا فوجئنا بمقدم ايزابيل من مدرستها حيث تعيش فى الداخلية وفوجئنا بعودة جورج فى نفس اليوم من جامعته فى ليون . وصلا قبل موعد انتظارهما بيوم .. انك

لا تدرى أى مشاعر تستولى على عندما أرى ايزابيل • كيف أعوصها عن الحرمان الذى عانت منه • الحب • الحنان • الأمومة •

قال الدكتور برهان - ميل وهو يقف بسيارته عند موقف سيارات خارج مدينة طنطا : تستطيع أن تركب هذه السيارة البيجو الى القاهرة •

ما كان البروفسير أرمان جاستون يستقر فى السيارة البيجو ، حتى دوى صوت ارتطام شديد له دوى هائل • وقفز الناس من كل مكان ، يسرعون الى السيارة الفيات الجديدة التى اصطدمت بسيارة نقل كبيرة محملة بالرمال • حدث هذا فى نفس اللحظة التى تحركت فيها السيارة البيجو الى القاهرة ، وفكر سائق البيجو لحظة فى التوقف ، ولكنه عاد وقرر أن يمضى فى طريقه ، وانطلقت التعليقات بين ركاب السيارة حول ذلك الحادث الذى وقع هناك فى الجانب الآخر من الطريق بعد محطة البنزين • ولم يفهم البروفسير ما الذى يتحدثون عنه ، ولم يستطع أن يتبين فى جلسته سيارة الدكتور جميل برهان التى تهشمت تماما •

استمر علاج الدكتور جميل برهان أربعة شهور قضى منها شهرا فى مستشفى طنطا ، وتم التعديل الوزارى الذى تجاهل

الدكتور لا لسبب ــ فى رأيه ــ الا لسوء حظه ، والحادث الذى هشم ضـلوعه وأصابه بكسر فى الحوض ، وآخر فى ذراعـه الأيسر •

انهم لا يعينون فى الوزارة رجـالا فى الجبس ، واعتزر الدكتور جميل برهان عن حضور ندوة البحر الأبيض المتوسط فى باريس • ولكنه بدأ أخيرا يسترد صحته ويستعيد نشاطه ، ويواصل حملاته الأخلاقية •

وما زالت تلك القصـة المؤثرة التى يرويها عن الانحـلال الخلقى كما شاهده بعينه فى أوربا ، وفى باريس بالذات ، تنال اعجاب سامعيه • أما حديث البروفسير جاستون معه عن ابنته ايزابيل فقد نسيه تماما • فمن خصـائص المخ البشرى أنه يمحو أى تسجيلات لمـا يحدث للمصـاب قبيل الحادث ، وأثنـاءه وبعده ، لفترة كافية ، حتى يتخلص المصاب من ذكرى صـدمة كادت تودى بحياته •

الرجــل المناســب

بعد قليل سوف أخرج لهم من هــذا الحمام لأعيد لهم ثقتهم بى ويطمئنوا الى انتصارى على الدكتور محمد السيد رئيس الشركة . المطلوب منى الآن هو بعض اجراءات سريعة . أمشط شعرى هكذا ، وأسوى شاربى ، وأسكب بعض قطرات من زجاجة الكولونيا الفاخرة « بورآن أوم » ليفوح عطرها فى جو الحجرة فيحــدث التأثير السريع . آه ما أصعب المهمــة . وما أشق المعاناة . لا ولكن .. الحمد لله ، وجهى مازال وسيما أيضا . بشرتى بيضاء . وعيناى خضراوان ، وشعرى أشقر ، وهذا الشارب يضيف الى وسامتى هيبة ووقار . قامتى فارعة ، وجسمى رياضى . ها هى المرآة تؤكد لى انى مازلت فى أحسن حالاتى ، وتقول لى ان كل الهموم التى تنهشنى ســوف تزول

حتما . ان محمد السيد لن يصمد أمامي في هذه المعركة ، وسيعلم الجميع في هذه الشركة أن شوكت منصور مدير عام الشركة هو الرجل الأقوى ، هو الرجل المناسب في المنصب المناسب ، لابد أن اصلح رباط عنقي ، انه رباط عنق جديد من طراز « جاك فات » آخر موضة . آخر صيحة ، ثمنه هو والمنديل خمسة جنيهات استرليني ، أي عشرة جنيهات مصرية . لاحظت صباح اليوم بقعة زيت في رباط عنق محمد السيد ، لعله زيت الفول في طعام افطاره ، لم أر في حياتي رئيس شركة رث الثياب فقير الذوق في ملابسه مثل محمد السيد . أن شركة التجارة الآسيوية الافريقية تفقد سمعتها في السوق المحلية وفي الأسواق العالمية بسبب بهدلة رئيس مجلس ادارتها . يقولون انه متعلم ومثقف ودكتور في الاقتصاد كلام فارغ . لم يخرب اقتصاد البلد وتجارتها غير هؤلاء الدكاترة البلهاء الذين لا يفهمون الحياة ، وتنقصهم الخبرة العملية بالظروف والناس ، وهم أجهل من دابة في شئون العلاقات العامة التي هي روح الأعمال التجارية . أنا أيضا مثقف وحصلت على بكالوريوس التجارة . ولكنني لم أتلف عقلي بالنظريات والدراسات الأكاديمية . ان الانجليز والفرنسيين لم يستعمروا افريقيا في القرن التاسع عشر بالنظريات ودكاترة الاقتصاد . سيطروا على افريقيا بالخرز الملون ، الذي بهر وسحر القبائل الافريقية فتنازلوا عن أراضيهم ومواشيهم مقابل هذا الخرز . أنا أعرف مصلحة الشركة ، وأفهم

السوق ، ولن أسمح لأمثال هذا الدكتور أن يخربوا العمل الذى قمت به خلال الخمسة عشر سنة الماضية • لقد كافحت ، وعانيت الذل والمهانة فوق ما يستطيع البشر لأنجح فى عمـل • وكنت دائما الرجل النزيه الشريف ، وأكثر من هذا كنت دائما الرجل الأنيق الوسيم الذى يشرف بمنظره وهيئته أى شركة على أى مستوى فى العالم • كانوا يسألوننى وأنا فى أوروبا : هل أنت الماتى ، هـل أنت أمريكى ؟ وكنت أقول لهم فى زهو : أنا مصرى • موقف مشرف للشركة ولبلدى • ولكننى دفعت الثمن غاليا كل مليم فى مرتبى أنفقه على مظهرى ، حتى العمولات التى يثيرون حولها ضجة سخيفة حاقدة • أين ذهبت ؟ أنا لا أملك عزبة ولا عمارة ، صحيح ان لى مسكنا فاخرا ولكنه ضرورى لعملى • أنا الذى يقيم حفلات الكوكتيل لعملاء الشركة • أنا الذى يدعو السفراء والملحقين التجاريين الى حفلات ساهرة فى بيته ، ولا يخجل محمد السيد وهو رئيس الشركة من أن أحدا لم يدخل بيته يوما من الأيام • ولم يشرب أحد فنجان قهوة معه فى صالون فهو بخيل تتن • انه فضيحة علنية مستحيل السكوت عليه بعد الآن •

على أية حال ، لقد تبدل على رئاسة الشركة خمسة رؤساء مجلس ادارة فى الخمس سـنوات الأخيرة • هنـاك من ذهب لارتباطه بمراكز القوى القديمة ، وهناك من ذهب بعد أن ثارت

الأشاعات والأقاويل حول مركز الشركة المالى وتدهوره الى حالة الافلاس • وهناك من ذهب بانتقاله الى رحمة الله • ولكن جميع هؤلاء الذين ذهبوا كانوا يعتمدون على ، وكنت دائما ساعدهم الأيمن الذى يريد لهم العمل ويسيطر على كل كبيرة وصغيرة فى الشركة لانهم كانوا عقلاء أصحاب نظر ، فمن يجدونه أفضل منى مظهرا وأناقة ووسامة ولباقة • لم أزعج واحدا منهم بكلمة • يسألوننى عن أحوال العمل • كله تمام يا أفندم • يسألوننى عن الميزانية • سنحقق أرباحا تزيد على أرباح السنة الماضية يا أفندم •

كنت أتحمل وحدى كل المشاكل ، وأواجه وحدى كل الأزمات • وكانت البنوك تمتنع أحيانا عن اصدار خطابات الضمان للعملاء ويتأخر استيراد السلع ، أو تلغى الصفقات • فلا أزعجهم ولا أربكهم ، وأدخل عليهم مبتسما هادئا • فيفرحون بى ، وأقول لهم ان الأحوال على خير ما يرام • وأذهب الى مدير البنك وحدى ، وقد ارتديت بدلة بيير كاردان ورباط عنق كريستان ديور ومنديلا من نفس الطراز ، وقميصا مقلما أزرق بخطوط سوداء ، اشتريته من «أوستن ريد» فى « ريجنت ستريت » وهو أفخم وأغلى محلات لندن • المحل الذى يشترى منه عمر الشريف وريتشارد بيرتون وغيرهما من كبار الممثلين العالميين ملابسهم ، وكنت أستخدم كولونيا جديدة « بالافر »

اشتريتها من مطـار أورلى فى باريس • وكان معى سيجار هافانا « مونت كريستو » السيجار الواحد ثمنه جنيه ونصف • كنت مسلحا بجميع أنواع الأسلحة الحديثـة • آخر ما وصلت اليه تكنولوجيا العصر • وطبعا انهارت مقاومة المدير ، وهو يرانى بكل هذه الفخامة أتوسل وأتذلل له • انى أعلم أن هـذا التذلل يرضى غروره ، أى مجد يطلبه فى حياته أكبر وأعظم من أن يرى فارسا وسـيما مثلى يكاد يقبل يده • وهـكذا تسير الأمور ، بالخبرة وبالعلاقات العامة • لا بالكتب والنظريات والاحصاءات والمذكرات •

لقد انقذت الشركة من افلاس محقق بوسائلى الخاصـة فى عشرات المناسبات ، وتحملت وحدى العذاب والألم • هانت على نفسى ، ولم أرض للشركة الهوان • كان قلبى يبكى ، وكنت أتناول أقراص المهدىء لأنام ، بينما رؤساء الشركة يغطون فى نومهم ويعلو شخيرهم فى بيوتهم لا يدرون شيئا عن العـذاب الذى أنا فيه • حياتى دوامة قاسية ، طاحونة تسحقنى كل يوم ، وأنا أبحث عن آخر الموضات ، وأتذلل وأجامل وأنافق كل من هب ودب من رجال الأعمال • أصبحت نفقاتي فوق طاقتى • لا المرتب يكفى ، ولا العمولات تسعفنى • العمولة الأخيرة من صفقة « الجوت » ذهبت فى العربة البوتنياك التى كلفتنى ثمانية عشر ألف جنيه • كان لابد لى من عربة أمريكانى جديدة حتى

أستطيع أن أضعها فى خدمـــة المستثمرين الجــدد الذين بدأوا بدأوا يترددون علينا مع الانفتاح • لا أستطيع أن أحشرهم فى عربة نصر ١٢٨ • فهذا عيب ، ويضر بسمعة الشركة ، ومن حسن السياسة أن نقول للمستثمرين الأمريكيين اننا نعجب بسياراتهم وببضاعتهم لنشجعهم على الدخــول بأموالهم فى مشروعات فى بلدنا • المظـــاهر ضرورية ، وبغيرها لن ينجح العمل • لقد ثار بعض الموظفـــين وكتبوا الشـــكاوى للمســئولين بسبب هـــذا الحمـــام الملحق بحجرة مكتبى • جهـــلة سفلة منحطون • هل اذا سألنى زائر أجنبى أن يدخل التواليت • أذهب به الى تلك المبولة القذرة التى يتبولون فيهـــا على البلاط وتفوح منهـــا روائح قاتلة ، لو زكمت أنف الزائر فلن يعود الينا مرة ثانيـــة ؛ لسبب بسيط : انها ستقتله على الفور • قيشانى الحمـــام أزرق مســـتورد من ايطـــاليا ، والمرآة صنع بلجيـــكا ، والبانيو من هونج كونج ، والدوش على شكل سماعة التليفون اشتريته من قبرص ، والسخان فقط هو الذى أحضرناه من المصانع الحربية • حمام لا بأس به • لو عرف هؤلاء الأغبياء سر المهنة ، لأقاموا لى حماما مثل حمام بلقيس ملكة سبأ • هنا مقر القيـــادة الحقيقى لأعمال الشركة ، ومن هنا سوف أخرج لأضع اللمسات الأخيرة فى معركتى مع محمد السيد •

عندما تولى رئاسة الشركة منذ ثمانية شهور خيل الى أنه

سوف يعتمد على مثلما فعل الآخرون . بمجرد دخولى عليه ، استوليت على مشاعره . بهرته كما بهرت الآخرين . سألنى عن أحوال الشركة . اطمئن يا أفندم .

قال لى انه سمع أن هناك مشاكل مالية . قلت له : انها اشاعات ، وان الشركة سوف تحقق فى أيامه أرقاما قياسية فى الأرباح ، وفى حجم التعامل . كنت أتحدث معه وأنا واقف فى أدب وطاعة . صوتى رقيق ذليل خاضع . سقطت منه ورقة على الأرض ، فجريت منحنيا حتى كاد رأسى يلمس حذاءه ، وأخرجت الورقة من بين قدميه وقدمتها له . عندما خرج من مكتبه ، وجدنى واقفا عند الباب ، سرت وراءه كالتشريفاتى حتى المصعد ، وهبطت معه حتى باب الشركة ، وفتحت له باب سيارته الفولكس ، وأنا انحنى فى أدب ، وشحنته كما يشحن الكهربائى البطارية الفارغة ، بكل مشاعر السيطرة والسلطة على شخصى . واستسلم الرجل . ولكنه بدأ فى الشهرين الأخيرين يطلب طلبات عجيبة : احصاءات عن معاملات الشركة ، بيان بالعملاء ، استدعى فرقة من المحاسبين لمراجعة الدفاتر واعداد الميزانية فى وقت مبكر . قلت له آلف مرة : يا أفندم لا تشغل نفسك ، اطمئن ، ولكنه فاجأنى بأنه ذهب الى مدير البنك بنفسه . وعلم منه أن معاملات الشركة معطلة ، وأن حالتنا المالية سيئة . قلت له بكل ما عندى من صدق واخلاص : يا أفندم اترك هذه الأمور لى .

هذه هي عادة مديرى البنوك فى تصوير الحالة • لقد تعودت على كلامهم هـذا ، وأنا أعرف كيف اتفاهم معهم ، ولو دخلنـا معهم فى مناقشات ودراسات فسترتبك الحـالة وتزداد سوءا • ولكنه نظر الى فى ارتياب وقال بصفاقة : أنت يا شوكت السبب •

ماذا أفعل ؟ انهمرت الدموع من عينى ، هل بعد كل هذه المعاناة من أجل انقاذ الشركة أكون أنا السبب • طبعا ، أزعجته دموعى ، وقام وربت على كتفى • وقال انه لا يقصـد الاساءة لى ، ولكن ما أهميـة هـذا الاعتذار بعد أن وقعت الفأس فى الرأس •

خرجت من عنده ، وذهبت الى الحمام وأصلحت هندامى ، ثم تركت الشركة ، ومضيت الى الوزارة ، وطلبت مقابلة السيد الوزير • كانت لى فرصـة لقاء به فى مطار « أورلى » دامت ربع ساعة ، قدمت نفسى اليه • واشتريت له بعض أربطة عنق فاخرة ، أعجب بها ، حتى انه بعد أن دفع لى ثمنها ، أهـدانى واحدة منها • ثم قابلته فى القاهرة فى أكثر من حفلة فى سفارة ، وقد لاحظت أنه ينظر الى باعجاب شديد • ولذلك كنت واثقا أنه لن يتأخر فى مقابلتى • ولكن مدير مكتبه قال لى انه مشغول بعدة اجتماعات لن تنتهى قبل الرابعة بعد الظهر •

فكرت فى الانتظار ، ثم خطرت لى فكرة عملية • فسألت

مدير المكتب متى يأتى الوزير فى الصباح عادة ؟ قال فى التاسعة . وسألته : هل لديه مواعيد أو ارتباطات خارج الوزارة صباح الغد ؟ فقال : لا .

وهكذا كنت أمام بيت الوزير فى الزمالك فى الثامنة صباح اليوم . وقفت بالعربة البونتياك أمام الباب ، وحيانى الحارس ، ودخلت الحديقة الصغيرة ، وصعدت درجا من الرخام الأبيض ، الى باب الفيللا . وقبل أن أدق الجرس ، فتح الباب . ولدهشتى كان سيادة الوزير أمامى ، ومعه ابنه الصغير فى ملابس المدرسة . ان سيادته والد حنون . يهتم كثيرا بأولاده . وما كاد يرانى حتى عرفنى ، وعرفت كيف أنحنى بأدب واعتذار ولباقة .

ولاشك أن مظهرى كان مرضيا . وانحنيت على البك الصغير وقبلت يده . ومن حسن حظى أن الولد أعجب بى ، ومد يده الى شاربى يتحسسه ، فجلست القرفصاء لأسمح له أن يلعب بشاربى كما يريد . وضحك الوزير . وضحك الولد ، وهو يجذب شعرات من شاربى . وحاول الوزير أن يجذب ابنه ، وأنا أردد : ما شاء الله .. ما شاء الله .. اتركه يا أفندم الاطفال أحباب الله .

وهنا صاح الولد قائلا :

ـ الله ريحتك حلوه .

وأدركت أن « بور آن أوم » قد أحدثت تأثيرها • ولاحظت أن الوزير ينظر الى فى اعجاب • وهنا ارتفع صوت بوق سيارة المدرسة فأخذت الولد من يده وسرت به الى الباب ، وحملته بين يدى وأركبته السيارة • ثم عدت الى سيادة الوزير الذى طلب لى فنجان قهوة • وسألنى عن أحوالى ، وهل لى زوجة وأولاد ماذا أقول له • رغم أن مظهرى جدير بأن يجعل زوجتى تفخر بى والبنتين تزهوان بأب مثلى الا أن العلاقات بيننا ميئوس منها • قلت له : نعم لى عائلتى •• ثم قلت : يا أفندم أنا ألجأ اليك فى موضوع قد تسخر منى بسببه • الشركة حالتها والحمد لله عظيمة ، وليست هناك مشاكل غير عادية • تحدث أحيانا بعض اختناقات ، فأعالجها • وجميع رجال البنوك أصدقائى • ولكن للأسف الشديد ، الدكتور محمد السيد رئيس مجلس الادارة قرر أن يعقد الأمور • فبدأ يثير المشاكل بنفسه مع البنوك ، ويطلب احصاءات ، ويكتب تقارير ودراسات ومذكرات ، وتركنا العمل وتحولنا الى كلية تجارة لا شركة تجارة •

ضحك الوزير قائلا :

— أنا فاهم تماما ماذا تعنى • فماذا تريد ؟

قلت باسما :

ـ والله يا أفندم لا أريد شيئاً على الاطلاق • سوى أن نستمر فى العمل ، دون أن نربك أنفسنا بغير مبرر • لا داعى لتعقيد الأمور •

قـال :

ـ طبعا • وعلى أى حال أطمئن • فأنا أعرفك • وأعرف انك رجل كفء •

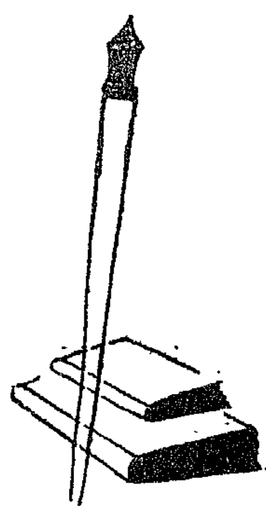
فغلبنى التأثر • وأغرورقت عيناى بالدموع فأشاح الوزير بوجهه حتى يترك لى حرية اخراج المنديل لمسـح دموعى • ثم خرجنا معا هو ركب سيارته الى الوزارة ، وأنا ركبت سيارتى الى الشركة •

كان الدكتور محمد السيد فى مكتبه ، فدخلت عليه ، وقلت له فى حرارة : انى لم أنم طوال الليل لأعد ما يطلبه من أرقـام وبيانات • وقلت له بصوت متهدج : انى خادمه المطيع فى كل ما يأمر • واذا كان لا يطمئن الى ، فأنا على استعداد لكتابـة استقالتى فى الحـال • فقال معتذرا : لا • شـوكت •• كل ما أطلبه هو أن نواجه المشاكل التى تحاصرنا بجدية •

قلت : طبعا •• يا أفندم •

وخرجت من عنده وقـد تأكد لى أن المشـاكل سـوف تتضاعف وتتفاقم ، ما دام هذا الرجل هو رئيس شركتنا •

الآن سوف أخرج للمديرين المجتمعين فى الحجرة • وسوف أطلب منهم أن يمتنعوا عن أعطاء أى بيان أو احصـاء لأحد مهما كان ، بغير اذن منى • حتى لو طلب البيان رئيس الشركة بنفسه • انها المعركة • والنصر لى • والآن •• بضع قطرات من الكولونيا أمسح بها وجهى ، قبل أن أفتح باب الحمام ، وأدخل عليهم •



قضت المحكمة باحالة الأوراق الى المفتى

فتح عينيه لاهثا ، وحاول أن يفهم ماذا حدث • انها مرة أخرى تلك الأحلام المفزعة التى تطارده • كان ضوء النهار يتسلل من النافذة المغلقة ، وأصوات الشارع تصل اليه واضحة ، سيارات تهدر ، وصياح سعداوى سايس الجراج ، وذلك الصوت الحاد الغاضب ، صوت الحاج شندى النوبى صاحب كشك السجائر • خير • اللهم أجعله خيرا • لقد استيقظ ، كان مجرد حلم • زينات فى الاسكندرية عند شقيقتها • ما كان يجب أن تسافر • انها الشرخ الوحيد فى حياته ، العطب الذى عجز عن اصلاحه ، هل هو عاجز حقا ، انه عجوز ، ولكنه ليس عاجزا ، زينات حبه ، زينات زوجته ، زينات ورطته • انها امتحان

ما كان يجب أن يدخله ، ولكنه دخله وانتهى به الأمر الى هذه الاحلام المفزعة ، التى يعرف بكل دقة سببها •

زفر أنفاسا حادة ، يريد أن يهدأ ويستريح بعد نومه المرهق ، واستعاد صور هذا الحلم الأخير : كان جالسا فى حجرة مكتب عبد الله فخرى رئيس النقض ، نعم •• كان مكتبه، وكان فخرى يجلس خلف المكتب ، وهو جالس أمامه • وكانت الحجرة معتمة • كأنها ساعة غروب • وكان يشعر كما لو كان فخرى قد استدعاه • وكما لو كان تلميذا يستدعيه ناظر المدرسة، كان محرجا قلقا فى صدره هلع • كما لو أن اهانة قد أصابته ، أيصل الأمر الى هذا الحد • ان فخرى صديقى • ويستحيل أن يحدث بينى وبينه لقاء على هذا النحو • كان فخرى ينظر الى من خلف مكتبه ، عيناه نافذتان وقحتان • وكان وجهه الصعيدى الأسمر الطويل متجهما • وسألنى :

ـ تاخرت يا يوسف •

أجبته كالتلميذ المذعور يعتذر لأستاذه :

ـ امهلنى بعض الوقت يا فخرى •

صاح فخرى :

ـ ولكن الحكم •• متى الحكم يا يوسف •

وتداعي جسد المستشار يوسف منصور وهو راقد فوق سريره . هاجمته أحزان طاغية لا تسمح له بمواصلة تذكر الحلم . ولكن لابد أن يجمع شتات نفسه ويتذكر .

كان فخري يقول له :

ـ أنت متردد .. وهذا خطر .

وأجابه يوسف :

ـ انه حكم اعدام .

وهنا ربت فخري على خده ، كيف حدث هذا . كيف انتقل فخري من وراء مكتبه اليه . ويكاد يلصق وجهه بوجهه . عيناه فى عينيه . وبسمة غريبة على شفتيه ، وكان فخري يسأل :

ـ هل أنت واثق .

لم يعد فخري هو السائل . لعلها كانت زينات ، أو مصطفى شكرى .. طبعا .. لابد أن يظهر مصطفى فى كل حلم ، كالثعبان . فهو سر المصائب ، هو واتحاده الاشتراكى . ووزاراته . ملعون ذلك اليوم الذى عرف فيه مصطفى عندما كانا طالبين فى كلية الحقوق . كيف اختلط به ، ذلك الانتهازى الصفيق . كيف قامت بينهما صداقة . كيف استمرت هذه

الصـــداقة بينهما • أنا من عائلة ، وهـــو من الأفاقين • أبى وأجدادى كانوا دائمـــا أصحاب سلطة دينية : فى الأزهر ، فى الافتاء ، فى القضـــاء الشرعى ، وهو ابن شكرى أفندى الموظف، الكاتب بادارة الجنايات بالداخلية •

قطع يوسف أفكاره ، وصوت يدوى داخله : « أنت على حق فيما فعلت » ونهض من فراشه وقد حزم أمره أن يتخلص من كل هذه الهواجس ، لولا أن الصوت الذى يهتف داخـــله استمر يقول بلهجة فيها ألم « الخـــوف أن تكون قـــد أدمنت احالة الأوراق الى المفتى واصـــدار أحـــكام الاعدام » ولكن يوسف لم يسمح لهذا الكلام أن يطارده ، فاندفع خارجا من الحجرة ، ليواجه اليوم الثانى من غياب زينات عن البيت • ألقى نظرة على باب حجرة حسن ابنه ، انه لم يستيقظ بعد ، ونظر الى ساعة الحائط ، كانت الثامنة الا سبع دقائق • عندما كان وكيلا للنيابة مثل ابنه حسن ، كان من المستحيل أن يظل نائما حتى هذه الساعة ، وخرج الى الصالة ، فوجد الصحف فى انتظاره فى مكانها المعتـــاد حيث تضعهـــا « أم نعيمة » بجوار التليفون : الأهرام وأخبار اليوم والجمهورية ، وأمسك بالصحف ، واتجه الى الحمام ، وقد استولى عليه الحزن من جديد وشعر بارهاق ، واكتفى بالتبول وهو واقف ، وعاد الى السرير ، وقرأ العناوين الكبرى فى الصفحات الأولى : « كيسنجر يبدأ جولة جديدة فى الشرق الأوسط » ، ولم يكمل فقد غلبه النعاس •

استيقظ للمرة الثانية فزعا ، كان هـذه المرة يصعد الى مشنقة ، وهو المحكوم عليه بالاعدام ، ثم جرى مرتديا بيجامته فى شوارع وحوارى معتمة ، ودخل بدرونات ، ومرق من أبواب كثيرة ،وسلالم وناس تجرى وراءه ، بعضهم زنوج يمسـكون بالحراب كالذين يطاردون طرزان فى أفلامه القديمة .

لو استمرت هذه الأحلام ، فسوف ينتهى به الحـال الى الجنون . سوف يعمل بنصيحة الدكتور بيومى ، أسـتاذ القلب فى الجامعة ، الذى أكد له أن قلبه سليم ، وقال له : اذا شعرت بوخز فى قلبك فتحرك ، وانشط بجسدك . لأنى واثق أن قلبك سليم مائة فى المائة . أعصابك هى المرهقة . سر على قدميك الى النادى ، خذ حظك من التسلية قبل أن تذهب الى عملك .

وقاطعه يوسف :

ــ ولكن الذبحة وأمراض القلب منتشره بيننا فى القضاء يا دكتور .

فابتسم الدكتور بيومى وقال:

ــ ليس فى حالتك .. مشكلتك هى الوهم . ونادى على « أم نعيمة » كان حسن قد خرج الى عمله ، وأعدت له الافطار، الشاى والمربى والتوست وقطعة جبن « جرير » ثم ذهب الى

الحمام ليقضى ساعته المقدسة . أنا لى ساعة مقدسة لابد أن أقضيها فى الحمام ، بغيرها لا أستطيع أن أفعل شيئا طوال اليوم ، لا يخرج من الحمام الا وقد انتهى من قراءة الصحف . قرأ الوفيات فى الأهرام ، واطمأن الى أنه لن يذهب اليوم الى عزاء . ولفت نظره حديث أدلى به مصطفى شكرى عن القطاع العام وضرورة تدعيمه : نحن لن نتخلى عن الاشتراكية . مكاسب الشعب لن يمسها أحد . لم يخرب البلد الا أمثال هؤلاء المنافقين . أفسدوا كل شىء . حتى القضاء أفسدوه . وأتلفوا أعصابه ، انه يكظم غيظه ونفوره . وقد تعود ألا يتكلم فى السياسة ولا يفرط فى ابداء الرأى ، واذا اضطر الى تعليق ، اكتفى بأن يقول فى وقار : « ربنا يصلح الأحوال » .

خرج من البيت ، بعد أن اتصل بزميله المستشار رجب ، عضو اليمين ، وطلب منه أن يمر عليه فى النادى بعد ساعة ، ليذهبا معا الى المداولة ، أمامه ساعة كاملة ، يواجه فيها نفسه . وما كاد يخرج الى الشارع حتى تذكر مشهدا من الحلم الثانى . كان وهو يجرى بين الأزقة هاربا من المطاردة ، يردد : « ثقتى بالعجيزى مطلقة » .

وهمس يوسف وهو يحث خطاه : « العجيزى .. .. العجيزى » .

وتمهل فجأة ، وقد غاظه أن يهمس لنفسه ، وغاظه أكثر

أنه أوشك أن يهرول فى الطريق . ليس هكذا يمشى رجال عائلة منصور الذين اتصفوا بالوقار . ان للمشى فى الطريق آدابه التى لا يعرفها أحد مثل رجال عائلته . انه ابن تقاليد عريقة ، وصاحب سلطة لم يحصل عليها من منصب ، سلطة ورثها فى دمه ، أبا عن جد . وهو قوى بها ، يستطيع أن يعتمد عليها ساعة الملمات . ان مثله عنصر نادر ، وبين زملائه المستشارين قلة قليلة من هذه العناصر النادرة ، من أبناء رجال الدين الذين حصلوا على تربية صارمة جادة ، فى ظل هيبة الشريعة وسيادتها . كان أبوه الشيخ منصور يوسف يقول له — وهو يراه يستذكر القانون المدنى أيام كان طالبا فى كلية الحقوق :

« مهما درستم شريعة الفرنجة .. وقانون نابليون ، وقانون جستنيان .. ومهما تمادى هؤلاء الحقوقيون فى الأخذ عن هؤلاء الأجانب . فمازلنا نحن أصحاب الكلمة ، الحفاظ على شريعة الله . أنظر فى أحوال الانسان من حولك تجد كلمة الشريعة هى النافذة فى كل أطوار حياته . دينه يسجل منذ لحظة ولادته فى شهادة الميلاد . رضاعته وحضانته ونفقته وهو صغير بشريعة الله . زواجه بشريعة الله . وفاته والتصرف فى ماله بعد وفاته بشريعة الله ، وهذه أمور لن تمس ، ولن يجرؤ حاكم واحد على المساس بها ، ملكا كان أو رئيس جمهورية ، ونحن حراس هذه الشريعة . لقد تبددت قوة الاسلام السياسية عندما هزم التتار

الكفار المسلمين فى بغداد ، وضاعت قوة الاسلام العسكرية عندما انهار حكم آل عثمان فى الحرب العالمية الأولى ، ولكن الاسلام باق لن يمسه سوء . باق بكتاب الله الذى يتولى هو سبحانه أمر صونه ورعايته . وباق بالشريعة والفقه ، بما نحمله نحن من مسئولية جسيمة فى الدفاع عنه » .

كان أبوه من الرجال الذين تحملوا المسئولية فعلا ، كل لحظة من لحظات حياته ، كان دأبا وجلدا وعنادا فى كل مجال ، تدعيما للشريعة ، ولتظل الحياة ثابته مستقرة لا تخرج عن خطها المرسوم فى شريعة الله . حارب كل ثائر واهم يريد أن يتحايل باسم الاصلاح والتجديد لينحرف عن خط الشريعة : « سوف يسقطون جميعا أو يذهبون كما يذهب الزبد جفاء . وتبقى الشريعة ويسود الفقه ، حتى يسترد الاسلام سلطاته السياسية والعسكرية » .

كان أبى رجلا عظيما . وهو الذى عارض زواجى ، كان يعرف أن بى عجزا .

وهنا صاح يوسف فى دهشه :

ــ يا الهى .. لقد عرفت العجيزى .

وتوقف عن السير يتلفت حوله ، خشية أن يكون أحد

يرقبه • كان بينه وبين بوابة النادى مسيرة خمس دقائق • ومن المحتمل أن يكون أحد معارفه فى سيارة من تلك السيارات التى تمرق بجواره •

كان يوسف يعرف بعض مفاتيح تفسير الأحلام عند فرويد • فالكلمات التى تعبر عن المعانى الحقيقية تلتوى وتأخذ اقنعة مختلفة فى الأحلام ، وهو الآن يرى بوضوح أن « العجيزى » هو « عجزه » •• وأنه عندما ردد فى الحلم : « ثقتى بالعجيزى مطلقة » كان يعنى أن ثقته فى عجزه مطلقة • أبوه هو الذى حذره من الزواج بزينات • قال انه يحبها ، فقال له : ان شخصيته ضعيفة • وعارض أباه ، وصمم على أن يتزوج حبيبة قلبه ، ليثبت أن شخصيته قوية • ولكن الأيام كشفت له الحقيقة ، خدعته زينات • استطاعت أن تحصل منه على ورقة يكتب فيها تنازله عن أملاكه لها • رجل قانون مثله لا يرتكب مثل هذا الخطأ أبدا • كان يعرف أنها ورقة لا تعنى شيئا ، وليس لها قيمة حقيقية • أكثر من التعبير عن عواطفه نحو زينات • ومع ذلك أخذت الورقة • وذهبت بها الى مكتب صديقه مصطفى شكرى فى الخفاء • وطلبت منه أن يسجل التنازل • وان ينقل لها كل أملاكه •

كانت لحظة لا تحتمل ، تلك التى جاءه فيها مصطفى • ليروى له ما فعلته زوجته • وينصحه بأن يلاطفها حتى لا تثير

باصرارها على تسجيل التنازل مشاكل وفضائح . أى زمــان هذا الذى يحافظ فيه أمثال مصطفى شكرى على كرامة الناس وأملاكهم ، ولكن مصطفى كان على حق . وكان لابد أن يطلق زينات حتى بعد أن تراجعت وبكت واعتذرت . ولكنه لم يفعل . لم يطلقها . واحتفظ بأملاكه . وضاعت منه صداقته ، وضاعت زوجته . وظلت الزوجة الضائعة زوجته ، أما الصديق فقد ضاع فى غمرة تلك الحيــاة الجديدة التى شق طريقه اليها بالنفــاق والخــداع .

كان قد وصــل الى بوابة النادى فاختــار أن يبتعد عن الأماكن التى قد يقابل فيها أحدا من معارفه ، وانحرف الى أرض الجولف مواصــلا سيره ، وهو يشــعر أنه يقترب من مكان بالذات لا يستطيع رغم ذلك أن يحدده .

حتى ذلك الوقت ، لم يصــدر حكما واحدا بالاعدام . لقد عجز . نعم . عجز تماما عن أن يفعلهــا . فهو ليس مثــل صديقه رجب الذى اذا اقتنع بهول الجريمة وبشاعتها ، واستقر الرأى فى المداولة على احالة الأوراق الى المفتى ، قضى ليلته يصلى ويقرأ القرآن ، وصلى الفجر حاضرا ، ثم ذهب الى المحكمــة ونطق بالحكم ثابت الجنان ، كان يقول ليوسف هــذه شريعة الله . ولنا فى القصاص حياة . ولكن يوسف يقول له فى عنــاد واصرار ، مؤكدا شخصيته :

ــ يكفى المؤبد . لا أستطيع أن أكون سببا فى أزهــاق روح .

وهكذا اشتهر بين المحامين قبل المستشارين ، ان الدائرة التى يجلس فيها المستشار يوسف منصــور ، أو التى أصبح يرأسها فيما بعد ، لن تحكم بأى حال من الأحوال بالاعدام . حتى كانت تلك القضية التى كان يتولى الدفاع فيها مصطفى شكرى ، الجريمة ثابتة ، الرجل قتل ضحيته عند رأس الحقل ، والضحية يبكى ويقبل قدميه ألا يقتله ، ثم قتل ابن الضحية وهو صبى لم يبلغ العاشرة من العمر . وكل ذنبه أنه شهد الجريمة . الاعدام واجب فى نظر المجتمع . ولكن الجميع كانوا واثقين ــ وعلى رأسهم مصطفى شــكرى ــ أن الحكم هو الأشــغال الشاقة المؤبدة . وكانوا محقين فى توقعهم لمنطوق الحــكم . يوسف منصور لم يحكم فى حياته حكما واحدا بالاعدام . لقد حكم من قبل فى جرائم أبشع وأفظع بالأشغال الشاقة المؤبدة . ولكن شيئا جديدا قد حدث . مصطفى شكرى نقل الى يوسف أخبار زوجته . قبل هذه القضية بشهرين : هذه الواقعة قلبت كل شىء رأسا على عقب .

الحقيقة أنى أصدرت الحكم على مصطفى شكرى ، فجعته فى توقعاته ، خيبت آماله . رأيت وجهه يشحب لهول المفاجأة . وهو يسمع بقرار احالة الأوراق الى المفتى . كنت لا أرى شيئا

غير وجهه الأبيض وعينيه الذاهلتين وفمه الفاغر ، وقد امتلأ صدرى بنشوة كبرى • جاهدت كثيرا لأخفيها خلف ستر الوقار •

اتتبه يوسف على رجل من عمال أرض الجولف ، يجرى نحوه ، صارخا أن يبتعد • وسمع ضجة من بعيد ، رأى انها تصدر عن جماعة من اللاعبين والعمال الذين يحملون أدوات اللعب ، وقد تعطلوا لأن يوسف يعترض مجال اللعب • ويعرض نفسه لخطر الاصابة بالكرة •

نظر يوسف الى الرجل فى وقار ، ورفض أن يسرع أو يهرول ، ومشى وقورا متزنا كما يجب أن يسير • راجعا الى حيث ينتظر وصول زميله المستشار رجب •

المشكلة أن هذه النشوة التى أحصل عليها وأنا أنطق بحكم الاعدام • أصبحت تسرى فى دمى • لو كنت قد أدمنت الخمر ، أو لعب القمار ، أو حتى النساء •• ولكن لا متعة لى سوى أى أنطلق بحكم الاعدام • أصبحت رئيس دائرة اعدام • الحكم يرضى الشريعة • يرضى القانون • يرضى المجتمع ويشفى غليله من المجرمين • ولكنى لا أحكم من أجل الشريعة ، ولا القانون ، ولا لأشفى غليل المجتمع ، أنا وحدى الذى يعلم أنها نشوة فى صدرى • نشوة تسرى فى دمى ، كما يسرى المخدر فى دماء المدمن • نشوة أسترها بالشريعة والوقار • آه لو كان

أبى مازال حيا • كان قد كشف سرى • هو وحده الذى كان يستطيع أن يرى أعماقى • أما مصطفى شكرى فهو عاجز عن أن يفهم أو يرى ، لأنه يغطى نفسه هو الآخر بأستار الاشتراكية ، والقطاع العام ، والاتحاد الاشتراكى • لم أعد أراه الا نادرا • وقد يحاول أن يتظرف ، ليقول لى :

ـ أما زلت رجعيا يا يوسف •

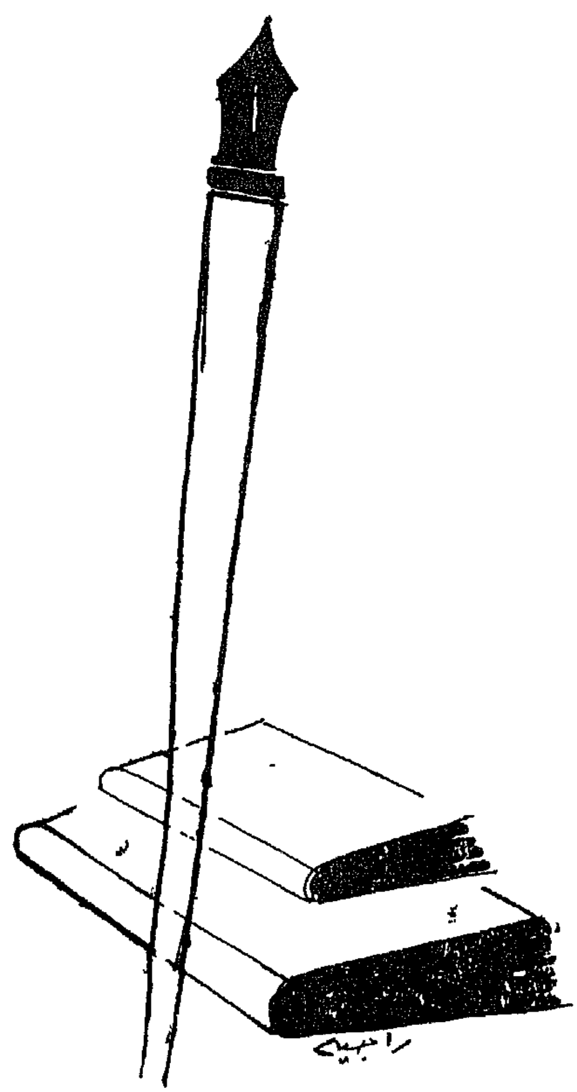
وأقول له ساخرا :

ـ وأما زلت شيوعيا ملحدا يا مصطفى •

ثم نفترق ، وكل واحد منا يود لو يكون هـذا هو اللقاء الأخير • ولكننى ألقاه كثيرا فى الكابوس الليلى • آه من تلك الأحلام التى حرمتنى راحـة النوم • كيف الخـلاص منها • اليوم سوف أقاوم تلك النشوة • انها نشوة آثمة • سوف أحرر نفسى من سيطرتها • سوف أتخلص من هذا « العجيزى » • كل شىء يضيع منى بسببه • انى أفقد كل شىء • أفقد كل ما تركه لى أبى وأجدادى ، يجب أن أنقذ نفسى قبل أن أجن •

خرج يوسف من أفكاره ، وهو يرى المستشار رجب مقبلا عليه • ليذهبا الى المداولة •

بعد يومين ، صدرت الصحف • تحمل خبر قرار محكمـة الجنايات برئاسة المستشار يوسف منصور ، باحالة أوراق الشقى أبو المعاطى الكبير الشهير بـ « الوحش » •• الى فضيلة المفتى !!



بيروت يا عزيزى .. هى بيروت !!

الحكاية أن المستشار عبد الله الأمير ، وهو رجل فاضل كما تعلمون جميعا ، أصر على قضاء أجازته فى بيروت . وهو رجل وقور له أسرة كبيرة : زوجة وولدان وخمس بنات ، اثنتان منهن تزوجتا ، وأنجبتا له أحفادا ، والجميع ـ أولادا واحفادا ـ يتمتعون بما نسميه « بحبوحة العيش » . وهذا أمر متوقع ، لأن عبد الله وقد بلغ الثالثة والستين مازال يعمل فى البلاد العربية : يعقد الصفقات ويقدم الاستشارات القانونية ، ويكسب شهريا آلاف الدينارات .

أصدقاء عبد الله الأمير القدامى ينادونه بلقب « بك » وهنالك بين معارفه من ينادونه بسعادتك ، ولا مانع اذا ناداه أحد الناس بقوله « حضرتك » ولكن اللقب الذى ينفر منه عبد الله

هو لقب « السيد » وهو يتجنب تماما من يقولون له « سيادتك » ولعل آخر مرة قرأ فيهـا عبد الله الأمير اسـمه مسبوقا بلقب « السيد » كان بمناسبة الخطابات الرسـمية بينه وبين وزارة العدل الخاصـة باستقالته من منصـبه كمستشار بالقضـاء ، وليتفرغ لأعماله فى الخليج • وبذلك تخلص نهائيـا من لقب « السـيد » الذى نكب به النـاس « المحترمين » من امراء ، وباشوات ، وأصحاب سمو ، وسعادة ، وعزة ، بعد الثورة التى هى عند عبد الله الأمير طاعون أصاب البلاد ، وهوى بها الى الحضيض • وهو حكم قاطع ونهائى أصـدره المستشار على الثورة منذ يومها الأول ، لأنها غدرت بسيد البلاد جلالة الملك فاروق ، وجعلت الحـكم فى مصـائر العباد لمن هب ودب من الغجر الجياع ، وهذه مهانة ما بعدها مهانة •

يقول عبد الله الأمير وهو يحتسى متمهلا جرعة صغيرة من كأس البراندى فى مجلس شرابه الليلى : « يا عزيزى القضـية واضحة ، هل يشرفك أن يحكمك ملك ابن ملك ، أم يتحكم فى حيـاتك صعلوك من صعاليك البلد ؟ » • وعنـدما يتقدم الليل ، ويحدث البراندى تأثيره المطلوب ، أى يصبح عبد الله فى حالة نشـوة هى مزيج من التوهج والاسـترخاء يدافع فى حماس عن كل ما قد يخطر ببال أحد أن ينسبه للملك فاروق من مفاسـد أو مباذل : « انه ملك يا عزيزى ، وشـاب ملىء

بالحيوية ، لمـــاذا لا يعرف من يشاء من النساء ؟ وهل هو الذى طلبهن ، أم هن سـعين لاهنـــات وراء شرف النوم فى سريره »

ثم يســتخدم عبد الله منطقـه القــانونى ــ وكانت حيثيــات أحكامه التى يفخر بها تلك التى يكتبها وهو يشرب البراندى ــ فيترافع ليثبت أن الثورة يا عزيزى كانت خروجا على القانون ، والذين قاموا بها أرتكبوا جريمة الخيانة العظمى ، وليس من حق أحد أن يتهم الملك فاروق بالاستغلال أو الاستبداد ، لأنه ملك البلاد كلها وهو صاحبها الشرعى ، والذين اغتصبوا حقه مجموعة من المتشردين المتمردين •

أحيانا كانت تواجــه عبد الله الأمير أزمـــة ، يعرف كيف يتخلص منها بسرعة ، عندما يهبط على مجلســه رجل نكد ، يعارضــه بكلام سخيف تافه ، كأن يحدثه عن الاشــتراكية أو الشيوعية ، أو نظم الحكم التى « يقرأون عنها يا عزيزى فى الكتب » وكلها هجص فى هجص وضحك على الذقون •• كان اذا تعرض لأزمة من هــذا النوع ، لاذ بالصمت ، واستغرق فى شرابه ، وكانت لديه قدرة خارقة ، على أن يغطس داخــل نفسه ، فمهما علا الضجيج من حوله ، واشتد الحوار ، لا يبدو عليه أنه يسمع أو يهتم بما حوله • وقد يتبسم بين حين وآخر ابتسامة خفيفة راضية بينه وبين نفسه ، تدل على أنه قد اندمج تماما فى عالمــه الخــاص •

غير أن أصحاب النكد ، قد تكاثروا فيما يبدو ، وهى نتيجة حتمية ، للطاعون الذى تفشى كالوباء ، ولقد توقع عبد الله الأمير أن يتخلص من هذا النكد خلال اقامته فى بلاد عربية أخرى ، ولكن أهل النكد تكاثروا كالذباب : « جميعهم يا عزيزى منافقون وأصحاب مصالح » وحدث أن سأله أحد هؤلاء المنافقين : « ألست صاحب مصلحة أنت أيضا يا عبد الله بك ؟ » فلم يكترث بالاجابة على السؤال ، كان فى توهجه واسترخائه يشعر باحتقار شديد نحو صاحب السؤال الوقح الذى يريد أن يتدخل فيما لا يعنيه ، ويطلب منه أن يبوح له بأسراره الخاصة ، وكان فى استرخائه غير قادر على أن يغضب أو يثور ، فاكتفى بأن لاذ بالصمت ، وكأن صاحب السؤال غير موجود •

وأدرك عبد الله الأمير أن المتعة الحقيقية ، لم تعد فى جلسات الشراب ، ولكنها فى الزجاجة والكأس وهو وحده ، ولم تقم أية عقبة فى تنفيذ القرار ، بل لعله كان قرارا حكيما ، وله مبرراته القانونية ، لأنه يقضى أغلب أيامه فى بلاد تحرم قوانينها الشراب • ومع ذلك كانت هناك عقبات ثانوية ، مثل تلك الثورة التى هاجت بها زوجته ، بعد اكتشافها المجلات الجنسية المصورة التى كان يشتريها ويتفرج عليها وهو يشرب وحده • لقد جنت المرأة اذ تلهبها الغيرة من هذه الصور • كانت تفتش عن المجلات اثناء غيابه فى مكتبه لتحرقها أو تخفيها • نكد من

نـوع آخر ، وهم يضـاف الى الهموم التى تحاصره فى كل مكان . ومع ذلك لابد أن يقاوم ، فماذا تريد منه هذه المرأة الحمقاء . أتريد بيتا ؟ ها هو بيتها فى الخليج مزدحم بكل ما يخطر على بال ، وهنـاك بيتها فى القـاهرة ملىء بالتحف والسجاجيد وأنواع الكريستال ، والملابس والأقمشة التى تعرضها متاجر الخليج والكويت مكدسـة فى حجرتين من الأرض حتى السقف فى بيت مغلق طوال شهور الشتاء . هـذا فضلا عن السيارات التى وزعها على الأولاد والبنات ، كلها « بيجو » و « داتسون » من أحدث الموديلات ، واكتفى هو بسيارته المرسيدس «٣٨٠» التى مضى على موديلها خمس سـنوات ولم يفكر فى تغييرها . ما هو المطلوب من رجل مثله آكثر من هـذا ؟ مصروف البيت لا يقل عن أربعمائة جنيه شهريا ، ألا يكفيها أنها زوجته الوحيدة؟ كان والده يجمع أربع زوجات فى بيت واحد ، وتزوج فى حياته سبع مرات ، وما كانت تستطيع واحدة منهن أن ترفع صـوتها بكلمة أمامه ، وكان من حقه أن يفعل ما يشاء وقتما يشـاء . كان سيدا مطاعا لا يناقشه أحد ، وكانت معاصر الزيت تجلب له أحيانا آلاف الجنيهات فيروج حاله ، وكان تموين البيت يصل محملا على عربات « كارو » وكانت الأزمات الاقتصادية تعرضه أحيانا للافلاس ، فيفرض على البيت نظاما صارما لا يجرؤ أحد على مخالفته . لقد كانت احدى زوجاته ، خادمة من خادمات البيت ، تزوجها وأزمة عـام ثلاثين فى ذروتهـا ، ولم تعترض

أو تحتج واحدة من نساء البيت . أما هو فقد كان الابن المدلل، ولكن الدلال لم يفسده ، استطاع أن يكمل وحده تعليمه بين عشرة أشقاء ، وأصبح فى خلال سنوات تخرجه الأولى من أشهر أقطاب شباب الأحرار الدستوريين ، وذاع صيته كمحام ، ثم عينته وزارة تحالف السعديين والأحرار الدستوريين فى القضاء ، ولو كانت الأمور قد سارت كما كان يجب لها أن تسير، لكان وزيرا ثم رئيس وزارة ، يحكم لا من أجل أن يقبض مرتبه آخر الشهر كما يفعل وزراء اليوم ، مرتزقة الحكم ، بل يحكم لأنه ابن عز ، يعرف الأصول والتقاليد ، ويعطى الحكم هيبته ووقاره .

لقد قضى وباء الطاعون على كل هذا ، ولم يبق له الا نفسه ، ولم تتبق له الا مصلحته الخاصة ، ولن يقف أحد فى طريق تحقيقها . انه يريد أن يتمتع بأيامه الباقية ، واذا كان يعمل ويجمع المال ، فلا أقل من أن يتمتع فى آيام أجازته . كان يفكر فى ألوان المتعة التى يستطيع أن ينعم بها ، وهو يشرب، ويبتسم لنفسه تلك الابتسامة الخفيفة ، ويدرس بعناية فائقة أنواع النساء ، وأشكالهن وأحجامهن . وقد أصبحت المجلات والصور الملونة ، مراجع هامة ، تساعده على القيام بهذه الدراسة . وكان أساتذته الكبار المعتمدون فى علم المتعة ، فاروق وحكاياته ، وأغنياء العرب وما يسمعه عن أمجادهم فى أوربا وبيروت .

« ان ممثلات هوليود يا عزيزى يأتين باشارة تليفونية فى طائرات خاصـة •• الشقراء ، وملكة الاغراء ، وصاحبه الصدر الأعظم •• أى واحـدة تعجبك على الشاشـة •• تأتى بلحمها وشحمها لتلتهمها بلحمها وعظامها • كما تلتهم حمامة محشـوة بالفريك » •

وكان من أروع ما سمعه ، وتأثر به فى مجلس ضم أحد أولئك الأغنياء • حديثه عن ملكة جمال فى بيروت ، أعجب بها ، فقضم بأسنانه قطعة من صـدرها ، وترك عليها علامة تاريخيـة مميزة • كان ينظر الى المتحدث العظيم ، فى توقير وانبهار • هذه هى قمة المجد الذى يستحقه العظماء • لمـاذا لا تكون له هو أيضا ، وفى أيامة الأخيرة متعته الخاصة ؟ ماذا يحول بينه وبين تحقيق ما يريد ؟

وهكذا قرر عبد الله الأمير أن يقضى أسبوعا من اجازته فى بيروت ، وكان ـ شأن أى عالم متخصص فى علمه ـ يضيق بأى موضـوع خارج عن نطاق دراسته وأبحاثه • فمثلا تلك الأخبار التى تنشرها الصحف عن حـوادث فى بيروت ، كانت لا تعنيه • « بيروت يا عزيزى هى بيروت » • واذا صادف أن سمع أحدا يتحدث عن مذابح أو حرائق أو عمليـات اختطاف فى حروب طائفية أو عقائدية •• الى آخر هـذا الهجص الذى

يتحدث به المنافقون من أهل النكد ، فهو قادر على تجاهله ، وتطهير نفسه من أدرانه . ما له هو وذلك الذى يحدث بين أهل النكد ؟ فليذبحوا بعضهم بعضا ، هـذا شأنهم ، وهذا ما جلبه عليهم الطاعون الذى تفشى بينهم ورضوا به وهللوا له . لعلها فرصة أن يحترقوا جميعا وينزاح الكابوس ، أما الجميلات فباقيات وهو يعرف أنهن هناك فى بيروت وسوف يذهب اليهن ، ويحقق بين أحضانهن أهداف رسالته .

عندما عرفت زوجته أنه يريد أن يقضى اجازته فى بيروت وحده ، تشاجرت معه ، واتهمته بأنه فاسق داعر ، وانتهزت الفرصة وأخفت جواز سفره لتمنعه من السفر ، وهددها بالطلاق . ولم ينقذ الموقف ، الا ابنته الكبرى التى عثرت على جواز السفر فى المكان الذى خبأته فيه أمها ، وأعطته له ، وطلبت منه أن يأتى لها من بيروت بقائمة طويلة من زجاجات البرفان ، وأنواع كريم البشرة . وسوتيانات وملابس داخلية . وفعل نفس الشيء أولاده جميعا ، كلهم قدموا له قوائم بطلباتهم التى لا تنتهى ، ما عدا أصغرهم وكان طالبا بكلية الهندسة . الذى قال له :

ــ يا أبى ان بيروت خطر .

فشخط فيه :

ـ هل أمك هى التى لقنتك هذا الكلام •

وسكت الولد ، حتى لا يقع الطلاق •

وانهالت النصائح على عبد الله الأمير ، وهو يرتب اجراءات السفر فى مكتب الجوازات ، وفى مكتب شركة الطيران وعند « الترزى » وقال له أحد أصدقائه القدامى :

ـ بيروت يا عبد الله بك سيدمرها المترفون ، لأن الله اذا أراد أن يدمر قرية أمر مترفيها ففسقوا فيها •

ولكن عبد الله كان يردد دائما :

ـ أنا مسافر فى عمل هام وملح يا عزيزى •

وكان يبتسم ابتسامته الخفيفة ساخرا من هـذا الهوس الذى ينطلق من حوله فى صورة نصائح •

منذ اللحظـة الأولى التى هبط فيها عبد الله الأمير مطـار بيروت ، وهو يسمع عن الخطر ، ولكنه فى الحقيقة لا يسمع • الطريق غير سالكة الى بيروت ، التاكسيات لا تريد أن تتحرك ، ولكنه يثابر ويعبر فى جلد وداب واصرار ، حتى يركب التاكسى الذى قذف به عند مفرق أحد الطرق ، وأشار اليه السائق أن يواصل وحده الطريق مشيا على الاقدام ، حـاملا حقيبته فى يده • فلا يتردد أن يفعل بنشاط شاب فى العشرين ، وسار فى

الشارع الخالى من المـارة ، وعيناه تريان جميـلات فاتنات مختفيات وراء الأبواب والنوافذ ، حتى اعترضـه حاجز يقف عنده شباب مسلح سألوه عن هويتـه وفتشوه ، وأخذوا منه ما معه من دولارات وجنيهات استرلينية ، ولم ينقذه الا أنهم تركوا له بين أوراقه دفتر الشيكات • وواصـل طريقه وكأن شيئا لم يحدث ، ودخل الفندق ، واختار جناحا فاخرا ، وكان يسجل اسمه ، وعيناه تدوران فى البهو بحثا عن مواقع الغادات الجميلات ، كان يشم رائحة عطرهن ، ويسمع موسيقى أصواتهن الناعمة اللاهية ، وكاد من فرط لهفته يؤجل الصعود الى جناحه • لولا نظرات الموظف الذى تقدمه يحمل المفاتيح نحو المصعد • ودخل جناحه ، ورأى الصالون الذى سيشهد سهراته ، واطمأن الى السرير ، مسرح عملياته ، والحمـام ذى الرخام الأسـود الذى تغسل مياهه كل ذنوب الدنيا ، وهاجت أشواقه ، فدفع البقشيش للموظف وللرجل الذى حمل حقيبته ، ثم سبقهم الى الخارج متجها الى المصعد ، وهو يسألهم :

ـ أين البـار ؟

ولم يفهم كلام الموظف ، وهو يشرح له ، أن هبوطه السريع هو عين العقل خشية حدوث انفجارات •

ولقد بدأت الانفجارات فعلا ، وهو يتجه الى البار ، وكان

في بهو الفنـــدق هرج وتجمع من بعض النزلاء والموظفين ، لم ينتبه اليهم ، كان مقبلا على فتاتين في البار يبتسم لهما . ولم يمض وقت طويل ، حتى كانت كل فتاة تدخل البار ، يائسة من وجود زبون في هذا الوقت العصيب ، أو هاربة من الهول الذى يجتاح شوارع المدينة . الا وأصبحت عنصـــرا في جلسته يقدم لها الشراب ، وقد تجمع بين الفتيات تفاهم مشترك . ان الظروف تدفعهن الى التضامن لا التنافس على هذا الزبون الذى جلس بينهن يكاد يقسم لنفسه أنه هارون الرشيد .

كانت مشـــكلة عويصـــة تلك التى واجهته عندما سكتت أصوات الانفجارات . اذ كان عليه أن يختار المعطيات اللاتى تواجدن به الليلة في جناحه الخاص . ولقد تكاثرن عليه ، وكان يبدو أن كل أوساط فتياتها لترحب بالرجل الذى يفهمها . كان جوهر المشـــكلة هو ذلك التناقض الحـــاد بين ذوق المجـــلات والصور التى تعمق في دراستها وذوقه الخاص ، فالثقافة تدعوه الى اختيار شقراء نحيفة ، أو زنجية شـــعرها كانيش ، وذوقـــه الخاص يدعوه الى اختيار سمراوات بدينات ، وحسما للتردد ، وجه دعوته الى الفتيات جميعهن ، وأعلن أنه سيقيم لهن حفلا لم يشهدن مثله . وكان يشعر أنه يتقدم الى مصاف الملك فاروق، وأغنياء العرب ، وبأنه يقترب من عتباتهم ، ويرتفع الى مستوى قداســـتهم .

عندما أفاق ظهر اليوم التالى من نومه أو غيبوبته ، كانت الى جواره تلك السمراء الممتلئة المحببة الى قلبه ، وكانت تبكى وتلطم خديها . وواجه الموقف بشجاعة رجل كان يؤهل نفسه للتصدى لمسئولية السلطة ، وارتفع فى ليلته الماضية الى عتبات السمو والجلالة فهو قادر على أن يحل مشاكلها ويمسح دموعها ويخرجها من مأزقها .

قالت له : انها تريد العودة الى مصر ، وروت له أنها كانت تعمل خادمة فى البيوت ، وتذكر أباه وتلك الخادمة التى تزوجها فى أزمـــة الثلاثين . وكان ينظر الى الدمـــوع المنهمرة فى عينى الســـمراء فتختلط ذكريات أبيـــه ، بحنين دافىء متدفـــق نحو السمراء .

كان مسترخيا على السرير ، عنـــدما هجمت على يديه ثم قدميه تقبلهما صارخة ان يساعدها ، قال لها فى غير فهم :

ـ هنا أحسن .. مصر انتهت .

صرخت :

ـ أريد أن أسافر قبل أن أموت .

هز كتفيه وقال مستسلما :

ـ من أجلك .. سأساعدك على السفر .

كان يراها مقبلة فى الطريق ، وهو جالس فى انتظارها فى السيارة التى ستنقلهما الى المطار ، كانت تسرع الخطى ، وجسمها الممتلىء يهتز ويثير نشوته ، ودوى صوت ، وسقطت فجـأةً ٠

وقبل أن يفهم ما الذى حدث كانت السيارة تنطلق به الى المطـار ٠

لعل السائق قال له انه اصيبت ، أو قتلت ، ولكنه لم يفهم تماما ما حدث ٠

عندما وصل القاهرة ، كان همه الأكبر ، أن يشترى قدر ما يستطيع من طلبات الأولاد ، من المطار ٠ واهتم بقائمة البنت الكبرى بالذات ، لأنها هى التى منحته فرصـة العمر بحصولها على جواز سفره من أمها ٠ ومع ذلك لم يستطع تحقيق الا جزء تافه من المشتريات المطلوبة ، وهكذا استقبلوه بفتور غاضبين ، لأنه لم يحضر لهم طلباتهم التى لا غنى عنها ٠

وصرخ فيهم غاضبا ، وقد امتلأ بثقة جديدة بعد رحلتـه الكبرى ٠ قال لهم انه لم يسافر من أجلهم ، بل سافر من أجـل نفسه ، ويكفيهم ما أخذوه منه ، وما زالوا يأخذونه منه ٠ ودفعته ثقته الكبرى الى أن يصارحهم بأن من حقه أن يتمتع بالحيـاة كما يتمتعون بها ، والذى لا يعجبه هـذا الكلام فليشرب من البحر ٠

وأغلق على نفسه باب حجرته ، وأحضر زجاجة البراندى واخرج بعض المجلات من مخبأ لم تكتشفه زوجته أثناء غيابه ، واحتسى ببطء وتمهل رشــفة بعد رشفة ، حتى شــعر بتوهج واسترخاء أضــاف اليهما ثقــة أكبر بالنفس ، واطمئنانا أعمق بالمستقبل ، وقلب صفحات المجــلات ، ولكن عينيــه تاهتا فى ذكريات جميلات بيروت ، وابتسم ابتسامة خفيفة ، وقال لنفسه بصوت مسموع هامس •

« بيروت يا عزيزى •• هى بيروت » •

تاملات كاتب مشهور فى آخر ايامه

عطلنى اجتماع الصباح عن كتابة مقالى ، ما الجديد فى أن نجتمع لنسمع من وزير أن الأوضاع السياسـية والاقتصادية تحتاج الى مزيد من الانتباه والحذر ، وأننا نخوض معركة ضارية فى مواجهة أعداء شرسين • أنا شخصيا أعرف فى هذه المسائل أكثر مما يعرف الوزير نفسـه ، ولقد فكرت فى الاعتـذار عن حضور الاجتماع لولا أننى أشفقت عليه فى اللحظة الأخيرة • وقلت لنفسى : عليك أن تتواضع ، وأن ترضى غرور الوزير ، الذى يريد أن يفرح بوجود كاتب مشهور مثلك فى اجتمـاع يدعو اليه •

طبعا الأوضاع خطيرة ، وعلينا أن نتماسـك الى أن يتم اختراع نوع من المبيد مثل مبيد الحشرات ودود القطن ليقضى

على أفكار ومناورات الميكروبات الثقافية الفتاكة ، وعلى رأسها الشيوعية ، والماركسية ، والالحاد والفوضوية ، والاشتراكية ، والارهاب ، لقد عجزت قنابل «شرايك» الأمريكية .. والفانتوم عن القضاء على هذه الأوبئة ، ولكن الطاقة الأمريكية والجبروت الأمريكي والعلم الأمريكي ، كل هذا كفيل بأن يصل في يوم قريب الى الاختراع المطلوب . ان هذه الشرور . هي « يأجوج ومأجوج » اللذان يقف بينهما وبيننا سد صخري منيع ، يلعقونه بألسنتهم أو بكلماتهم وشعاراتهم ، حتى يتحول السد الصخري الى غلالة هشة رقيقة توشك أن تتحطم ليجتاح « يأجوج ومأجوج » هذه الدنيا ويقضوا على كل من فيها . والأمل في معجزة من الله سبحانه وتعالى تنقذنا من هذا التهديد المدمر ، وبعد الله ، يأتي الدور الأمريكي الذي أصبحت له أهميته بعد فشل الدور الروسي .

أنا شخصيا عدو اليأس ، وهذا هو سر نجاحي ككاتب ، القراء يتفاءلون وهم يتابعون مقالاتي . أنا لم أفقد أبدا نغمة التفاؤل حتى وأنا أعاني من آلام الذبحة الصدرية . حاولت ان أخفي نبأ مرضي حتى لا يشمت في الكلاب الأعداء . وحتى لا أغم القارىء بأخبار سيئة . لابد أن يشعر قارئي أني قوي في كل وقت ، وأني صامد للأحداث وللخصوم وأني فارس المعركة . حجبت أخباري المزعجة ، لأن مهمتي المقدسة ، هي

نشر الفرح والبشر بين الناس . الذين يشكون من وطأة الغلاء . أقول لهم : سوف يعم الرخاء . الجوعى سوف يجدون الطعام. الذين بلا مأوى سوف يجدون أفخم الفنادق وأفخر القصور ، الذين يعانون من أزمة المواصلات ، سوف يأتى يوم يركب فيه كل واحد سيارته الخاصة ، أو يكون له هيلوكوبتر خاصة ، لقد كنت ناجحا دائما عندما أروى قصة الفقير الذى ابتسمت له الدنيا ، فأكل الديوك الرومى وهو الذى كان يسيل لعابه عندما يشم رائحة الطعمية ، وأكل الكافيار وهو الذى كان لا يجد لقمة يغمسها فى المش أو ماء الملوحة .

القراء يحبون شراء الكلام المريح المفرح ، الذى ينقلهم الى عوالم بهيجة ممتعة ، انهم يهربون من الكلام المعقد السمج ، وهم على حق ، فلابد أن يكون القارىء مجنونا أو شاذا حتى يرضى بوجع الدماغ ، ويتحمل الصداع الذى يحاصره ، وهو يقرأ تحليلات ونظريات وفلسفات ثم يخرج من قراءاته وصداعا بأن عليه أن يربط الحزام على بطنه ، وان يتحمل الجوع ، أو يتنازل عن متع الحياة فلا يشترى السلع والبضائع المستوردة . لقد انهار كتاب كثيرون وسقطوا فى أعين القراء ، ولم يصلوا أبدا الى عتبة الشهرة ، لأنهم كانوا نذير شؤم ، ينعقون كالبوم ، حتى ضج الناس من نعيقهم .

بالأمس قلت هذا الكلام لوزير الاعلام . قلت له : ان

الحل الوحيد فى مثل هذه الظروف التى يجتازها بلدنا ، هو أن نلح فى تصوير الحياة المرحة الوردية التى سوف يتمتع بها الناس • ثم قلت له ضاحكا : انني أعنى الحياة الوردية ، لا الحياة الحمراء ، حياة حمامات الدم • فضحك الوزير وقال : ان اللون الأحمر ليس قاصرا على الشيوعية ، فهو أيضا لون فانلة النادى الاهلى • قلت له : انى جاد فيما أقول ، وان الذى دفعنى الى مخاطبته ونصحه هو حرصى على بلدى ومستقبلها فضلا عن حرصى عليه هو شخصيا ، وضربت له مثلا بما حدث لى عندما أصبت بالذبحة • كانت أهم نصيحة قالها لى كبار الاطباء فى أمريكا وانجلترا ، هو أن أواجه هذه الأزمة بالراحة النفسية والمرح والابتسام ، والابتعاد عن كل ما يثير أعصابى ويقتلنى • ان الشعب مثله مثل جسم الانسان ، والأزمة التى تواجه المجتمع ، لن تكون أخطر وأفدح من أزمة كالذبحة تهدد من تصيبه بالموت • فاذا كان أكبر أطباء العالم يقولون ويؤكدون ان الجسد يستطيع مقاومة الأزمات الصحية بابتسامة مرحة ، فكذلك تستطيع الشعوب والأمم أن تواجه الأزمات بالضحك والمرح • وقلت للوزير : انه لابد أن يأمر بمضاعفة ساعات ارسال البرامج الفكاهية ، ولابد أن يشجع مسارح الفكاهة ، ويشجع الشبان الذين يكونون فرقا فكاهية مثل فرقة ساعة لقلبك • لقد اختفت هذه الفرقة ، بينما كان المفروض أن تكون لدينا عشرات من الفرق مثلها •

لا أستطيع أن أجزم بأن الوزير سوف ينفذ نصيحتى ، ولكنه كان على أى حال مجاملا لبقا ، ولقد أرضيت ضميرى لعون ، فاذا لم يأخذ بنصيحتى ، فلا يلومن الا نفسه اذا لم يجد نفسه غدا يجلس فى كرسى الوزارة ، ان الاحداث تفرض نفسها ، وما قلته للوزير هو الرأى الوحيد الذى نستطيع أن نواجه به الازمة .

لقد عرفت كيف أتخلص من مخاوفى بعد شفائى من الذبحة، وكان علاجى فى التحول الاكبر هو تلك الصحفية الكتكوتة سلوى ، التى جاءت تزورنى لتحصل منى على حديث صحفى، جاءتنى بآراء مفاجئة أشبه ببيع المياه فى حارة السقايين ، فكتبت لها الحديث ، وكتبت مذكراتها التى أهم مرحلة من مراحل حياتها أحسست فتاتى التى تتصل بنضارتها وشبابها كل همومى ، أ مثلها الأعلى ، الله فى السماء ، وأنا فى الأرض ، تعبدنى ، ا لا تحب الشبان الذين هم فى مثل سنها ، انها تعرفهم وتفهمهم وترى أنهم أولاد حمقى . فهربت من عالمهم ، ودخلت عالمى أنا الرجل العاقل المتزن الحكيم الوقور ذو النفوذ .. انها لا تعرف طبعا أن حماقة الكهول أعمق وأبشع من حماقة الشباب ان زوجتى التى جاوزت الخمسين امرأة شمطاء لا تطاق حماقتها ارتفعت الى مرتبة الجنون . ولو استسلمت لها سوف تنتهى حياتى فى لحظات . سلوى أصغر من ابنتى سعاد ومنى ،

وأعاملها كما لو كانت ابنتي الثالثة • ابنتي الصغرى • والفارق الوحيد بينها وبين بناتي ، هو الحب الذي بيننا ، حب كامل يشمل الروح والجسد معا • علاقتنا وثيقة ، هي في حاجة الى ، في حاجة الى حمايتي ونفوذي ، في حاجة الى نقودي وهداياي ، في حاجة الى قلمي الذي يكتب لها الريبورتاجات الصحفية التي تقفز بها سلالم المجد الصحفي • وأنا في حاجة الى نضارتها وصباها ومرحها وخفتها وطيشها ونزقها • أنا في حاجة الى ساعات أنسى فيها مخاطر الذبحة وضغط الدم ، في حاجة الى لحظات أنسى فيها ضراوة المعركة التي أخوضها ضد الخصوم والأعداء • بغير هذه اللحظات لا أستطيع مواصلة الحرب ، لن أسمح لهم بالانتصار على ، سأبذل أقصى ما أستطيع لأقضى عليهم واحدا واحدا ، انتظر اليوم الذي أمشي فيه وراء نعوشهم، ومن حسن الحظ أن امراضا أخطر وافتك بدأت تصيبهم ، اللهم لا شماتة • ولكن الدنيا بغيرهم سوف تكون أحسن • انهم أفاع ينتظرون الفرصة للوثب واللدغ القاتل • أنا أعرف فضائحهم واحدا واحدا • لقد غرقوا في ملذاتهم وخدعوا هذا الشعب المسكين فتظاهروا بأنهم جهابذة وهم أجهل من دابة • ان الواحد منهم على استعداد لأن يبيع أمه مقابل سيارة هدية ، أو ريكوردر كاسيت من مليونير من مليونيرات البترول • الخطر الأول على البلد هو الحمر ، والخطر الثاني هو هؤلاء المرتزقة الانتهازيون ، والذين يدسون لي ويريدون القضاء على شهرتي

ومجدى ونفوذى بأى ثمن ، اننى آعجز تماما عن الوصول الى معنى مفيد أو جملة لها قيمتها الفكرية أو الأدبية فى كل ما يكتبون ، انهم يحاولون تقليد أسلوبى فاذا بهم يسقطون فى هوة التهريج والاسفاف ، التأييد الذى أساند به السلطة ، يقلدونه فيتحول الى نفاق ، النصائح التى أهمس بها فى آذان المسئولين يمسخونها فتتحول الى تخريف وشطحات ، انهم لا يقنعون أحدا ، الجميع يسخرون منهم ، الجميع يحتقرونهم ولا يثقون فى كلمة واحدة مما يكتبون ، وهنا مكمن الخطورة ، فلاذا فقد القراء الثقة بالكتاب ، فسينجم عن ذلك فراغ هائل فى عقول الناس يملؤه الحمر والفوضويون والعفاريت الزرق بأفكارهم الفوضوية الملحدة ، ويكون الخراب ، وتكون الطامة الكبرى ، اننا فى حاجة الى تطهير جونا الثقافى من هذه الأوبئة الأدبية والصحفية ، تتخلص من كل تلك الاتجاهات اليسارية التى تخفى وراءها عمالة سافرة أو مقنعة للشيوعية والأممية الدولية ، نتخلص من كل الكتاب الانتهازيين المنافقين الذين يبيعون أقلامهم لدولارات البترول وغير البترول ، تتخلص من الكتاب الذين عاشوا على الحقد والارهاب خلال السنوات التي مضت وعانى فيها الشعب من أفظع ألوان البطش والطغيان ، تتخلص من الكتاب المرضى الذين سقطوا فى براثن المرض وعجزوا عن التصدى له ، فانعكس اليأس فى كتاباتهم وتسربت المرارة الى

أقلامهم ، ولم يفلحوا فى تقليد ما فعلته أنا اذ قاومت المرض وواصلت نشر التفاؤل والحب بين القراء •

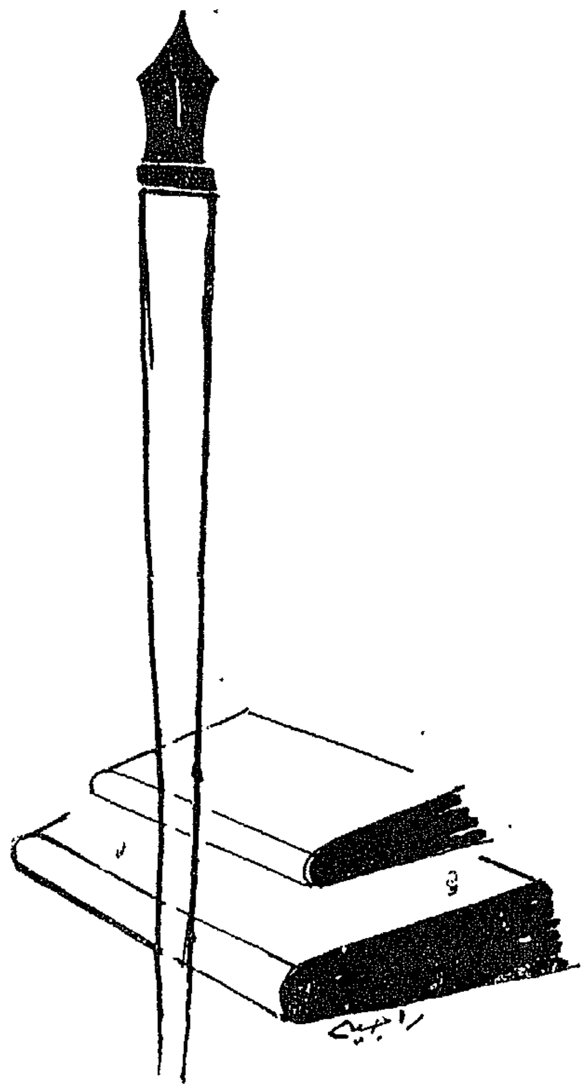
لاشك أنه من سوء حظ هـذه الأمة أن تكون عقيمة فى الكتاب الكبار والمفكرين الاحرار ، قليلون جدا ، بل هم أندر من النادر • بل لعله لايوجد كاتب واحد مشهور له قيمته وتأثيره غيرى أنا •

انه من سوء حظى أنا أيضا ، فالمهمة أصبحت ثقيلة مضنية، والمشاكل ملحة ، والأزمات متلاحقة ، ولابد أن أواصل كفاحى ونضالى حتى أسقط شهيد القضية التى أدافع عنها •

لابد أن أشرع فورا فى كتابة مقالى ، بعد ذلك الاجتماع المضحك الذى عقدناه • كان الوزير يتكلم بأسلوب ركيك ، سوف يتعلم من مقالى درسا فى صياغة الجمل ، وترتيب الأفكار وتنسيقها ، سأكتب عن الصلة بين أزمة الشرق الأوسط وسياسة الوفاق • سوف أتعرض لأخطر مشكلة • وهى الاقتصاد •

آه •• لقد نسيت •• ويجب أن أكتب أولا ريبورتـاج سلوى • حبيبتى سلوى • قالت لى ليلة أمس : هل أنت دائما وقور ؟ قلت لها : هـل مللت الوقار ؟ قالت : أحيانا • قلت : ماذا تعنين ؟ •• قالت : أحيانا أفتقد حماقة الشـباب وتهوره

واندفاعه ، قلت لها : ولكن هذا فى امكانى يا حبيبتى .. كانت ليلة غريبــة . ركعت فيهــا على ركبتى كأنى روميو ثم قبلت بمنتهى التهور والطيش أصــابع قدميهــا . لابــد أن أكتب الريبورتــاج الذى وعدتهــا به عن الاجهــاض بين المؤيدين والمعارضــين .



الموت على طريقة فلفل

فلفل سايس جاراج باحدى عمـارات شـارع من أهم شوارع الاسـكندرية • طريق أبو قير ، أو طريق الحـرية ، أو طريق جمال عبد الناصر • ولكل واحـد أن يختار الاسـم المناسب ، حسب مزاجه ، أو حسب رأيه السياسى • ولكن فلفل لا يهتم بالاسماء ، فهو صاحب مزاج خاص يجعله يختفى أحيانا من الجاراج ، ليهبط أصحاب المرسيدس والبويك والفولكس ونصر ٢٨ من مساكنهم ، فينادون عليه : يا فلفل يا فلافل •• ثم يضطرون الى دفع السيارات وزحزحتها بأيديهم ، ليخرجوا بعرباتهم الى الطريق ، وهم يلعنون فلفل وأيامه ، حتى اذا صادف أن قابلوه تلبستهم حالة من السماحة ، ونسوا غضبهم ، لأن

الرجل قادر دائما على أن يقدم أعذاره الغريبة الساحرة . انه يعتذر بجسمه القصير ، النحيف ، الذى يتحرك كلاعب اكروبات بين السيارات ، وأعمدة الجاراج ، ليخرجها بسهولة وسرعة . وفى نفس الوقت يدغدغ أذنى صاحب السيارة بحكاية .

صوت وردة ينطلق من أكثر من نافذة ، يمد فلفل ذراعيه فى حركة راقصة الى السيارة المرسيدس ، وينحنى ليجذبها بطريقته الخاصة من عجلتها الأمامية ، قائلا وكأنه يحدث نفسه :

« وهل بعد (الست) غناء .. الله يرحمك يا ست » .

وبينما تنزلق العربة فى خفة ، وصاحبها يرقب فى حذر خشية أن يصطدم بسيارة مجاورة ، يرفع فلفل صوته مع اندفاع السيارة الى الخارج :

« الله يرحمها ، كانت تحبنى ، كانت تأتى الى الاسكندرية، فترسل الى لازورها فى بيتها وتسألنى : هل أنت مبسوط يا فلفل . أقول لها : مبسوط بوجودك يا ست ، فتضحك ، كانت ابتسامتها حلوة ، مثل صوتها الحلو ، وتقول لى : أنا أيضا مبسوطة يا فلفل ، طالما أنت مبسوط » .

ويقفز فلفل الى باب السيارة يفتحه ليركب صاحبها ، الذى

أصبح كالمنوم وقد سيطرت عليه ، دون أن يدرى ، حركات فلفل وحكايته عن « الست » .

ويمسك فلفل بالفوطة الصفراء ، لينظف الزجاج الأمامى ، وفى هذه المرحلة ، ينظر الى الراكب عبر الزجاج ، ويوجه اليه الحديث مباشرة :

« ذات مرة طلبتنى فى منتصف الليل ، وقالت لى : انا محتاجة لك يا فلفل . قلت لها : رقبتى يا ست . قالت : أريد السفر الى القاهرة الآن والسواق مريض .. قلت لها : سوف نكون فى القاهرة باذن الله . قالت : أنا أعرف شطارتك فى السواقه . قلت لها : أنا تربية مستر « شنكر » الذى كان صاحب أكبر جاراج فى محطة الرمل . كانت عنده سيارات سباق ، لا يسمح لأحد فى الدنيا أن يمسها سواى . كنت أخرج بها من الجاراج بسرعة مائة كيلو ، ولا يهتز له رمش . تعرف سعادتك ، أنا سافرت معها فى الطريق الصحراوى وحدنا ووصلنا بيتها فى الزمالك فى ساعتين ، وهى مطمئنة تماما . ليلتها سمعتنى أغانى ، لم يسمعها أحد ، ولن يسمعها أحد .

وهنا يضحك صاحب المرسيدس ويقول ساخرا :

ــ متى تبطل تعاطى البسطل يا فلفل ..

ينظر اليه فلفل فى وجوم ويقول حزينا :

ـــ لا أعرفه يا سعادة البك •

يقول الرجل هازئا :

ـــ وهل عرفت حقا أم كلثوم ؟

فيجيب فلفل فى عتاب وحسرة :

ـــ ست الكل •• كانت لا تحب أحـــدا فى الدنيـــا مثل حبها لى •

وتنطلق المرسيدس ، يشيعها فلفل بنظرات شاردة ، وتقبض يده على الفوطة الصفراء ، ويمشى محنى الظهر ، وكأنه فقد كل نشاطه ليجلس فى ركن معتم فى الجاراج ، به علب صفيح قذرة، بعضها فيه بقايا طعـــام ، أو بقايا شـــاى ، أو ماء للســـيارات أو الشرب • وكومة من الخرق ، يرقد عليها اذا أراد النوم • وغالبا ما تأتى قطة سوداء لترقد بجواره • يتبادل معها نظرات صامتة ، ويرقبها فى استسلام ، وهى تقلب علب الصفيح لتلعقها وتنظفها •

لا أحد يعرف ، ولا فلفل نفسه : هل هو عجوز أم شاب ؟ وجهه أسمر ملىء بالتجاعيد وعيناه ضيقتان لونهما بنى داكن ، تومضان أحيانا ببريق نافذ فيه جســـارة ولا يخلو من قحة • ويحدث هذا ، غالبا ، عندما يتحدث فلفل عن براعته فى قيـــادة

السيارات ، فهو عندئذ يميل الى كفة الشباب ، لولا شعود الأكرت الأشيب الذى يلفت النظر أكثر من غيره ، عندما يتكوم ذاهلا فى ركنه المعتم . فاذا ما فاجأه صاحب سيارة كان ينادى عليه ، وهو فى هذه الحال تراجع فى صراخه ، أمام شيبه الوقور ، وهيئته التى تحوله الى كائن ضعيف ، وكهل لا حول له ولا قوة .

ذات مرة ، كاد صاحب « البويك » الرجل الغنى الذى يسكن فى الطابق التاسع ، أن يتسبب فى طرد فلفل من الجاراج ، فهو يصر على أن تقبع عربته فى مكان خاص من الجاراج يسمح لها بالخروج فى أية لحظة . وكان فلفل حريصا على تنفيذ هذه التعليمات بدقة فاذا احتل صاحب سيارة أخرى هذا الموقع ، توسل اليه فلفل أن يبعد بسيارته عن المكان . حتى لا يتعرض للأذى . وينجح فلفل دائما فى توسلاته ، رغم أن بعض أصحاب السيارات الأخرى كان يركبهم العناد ، فصاحب « البويك » لا امتياز له على صاحب سيارة نصر ٢٨ أو سيارة فولكس .

يقول فلفل متوسلا شارحا موقفه الدقيق :

ـــ الرجل شرير .. لا يتردد فى ايذائى .. وهذا لا يرضيك يا سعادة البك .

وقال له أحد الذين ركبهم العناد ذات يوم ، وهو مهندس شاب صاحب سيارة فولكس عتيقة :

ـ هذا أمر لا يخصك • قل له أنى صممت على وضع عربتى فى هذا المكان • واذا أراد شيئا •• فليحدثنى أنا •

وقبل « فلفل » هذا المنطق ، ووقعت الواقعة ، فقد أفاق من رقدته على ركلات صاحب البويك متوعدا اياه بالطرد • وقفز فلفل فى الهواء ، وأسرع يخرج العربة فى غمضة عين • ويومها أنقذته حكاية « البويك » التى كان يملكها مستر شنكر :

« كانت الوحيدة من نوعها فى مصر ، ثمانية سلندرات ، ولا يعرف أحد أسرارها سواى • أكبر ميكانيكية « طليان وجريك » فى البلد ، وقفوا أمامها حيارى ، تعرف سعادتك أن فى عربتك البويك هذه أسرارا لا يعرفها أحد ، تستطيع أن تقودها بغير استخدام قدميك • الكاربيراتير يوزع البنزين بالكهرباء • البويك أعظم سيارة فى الدنيا • فى يوم دخل مستر شنكر الجاراج وقال لى : يا فلفل •• لا تحزن لما سأقوله لك • قلت له : خير ، قال : الملكة نازلى رأت البويك وأعجبتها ، وفهمت • قال : خذها واذهب بها اليها ، فهى تنتظرها فى رأس التين ، كانت واقفة عند الباب ، وأبواب السراى مفتوحة ، والحرس واقف على الجانبين ، ودخلت على سرعة مائة وأربعين • ووقفت أمامها تماما • وتهلل وجهها قلت لها : يا مولاتى هذه السيارة تساوى ثقلها ذهبا •• قالت : أركب معك وأنت تسوقها ، وأخذنا لفة

فى حديقة السراى . قالت : أنت وحدك الذى يسوقها لى .
قلت : الخواجة يفرط فى السيارة ، ولا يفرط فى . قالت : وأنت ماذا تريد . قلت لها : الخواجة غلبان ، لو تركته يتعب . فضحكت . وقالت : أنت مخلص يا فلفل . أطلب ما تشاء أعطيك، قلت لها : الحمد لله . أنا عندى ما أريد » .

وهنا خطر لصاحب البويك ، خاطر ، فنسى غضبه ، ولكن هذا الخاطر ، كان فيه نهاية فلفل .

كانت الحكاية التى تخلص بها فلفل من عناد المهندس صاحب العربة الفولكس العتيقة ، عن هارون الرشيد ، ورواها فلفل باللغة العربية الفصحى . ويبدو أنه حفظها بعد أن سمعها كثيرا فى مكان ما . العزبة التى يتردد عليها ، أو مجلس البوابين فى ليالى الصيف أمام العمارة :

« خرج أمير المؤمنين هارون الرشيد هو ووزيره جعفر ليتفقد أحوال الرعية ، فمشى فى الأسواق متنكرا ، وتردد على ندوات السمار ، فسمع ما لا يرضيه ، عن سوء الأحوال ، فالغلا يشتد ، والطعام يشح ، ونظر هارون الرشيد الى وزيره جع غاضبا ، فاصفر وجهه وخاف . وأراد أن يدافع عن نفسه ، ففت فمه ليتكلم ، فقال له هارون الرشيد : أسكت ولا تتكلم ، فل أسمع منك رأيا بعد اليوم ، ولسوف يكون صاحب المشور

هو أول من ألقاه فى طريقنا من رعاياى . وكان أول من رآه هارون الرشـيد ، امرأة تبكى وتلطم خـدها فسألها هـارون الرشيد : ما الذى يبكيك يا امرأة قلت : لا أجد طعاما لأولادى الجياع ، فأعطاها ما معه من دنانير ، وقال لها : خذى كلى أنت وعيالك . قالت المرأة : والله أنت خير من هارون الرشيد . قال لها : هارون الرشيد ما ذنبه يا امرأة ؟ قالت : لو كنت مكانه لسجنت كل وزرائه ، وعلى رأسهم جعفر ، وقتلتهم ، فينصلح الحـال . قال هارون الرشيد : هـذه هى مشورتك وهى خير مشـورة . وذبح هـارون الرشـيد جعفر البرمـكى . وكل البرامكة » .

ضحك المهندس متعجبا وسأله :

ـ اين تعلمت هذا الكلام يا فلفل ؟

قـال فلفل .

ـ وهل تظن أنى لم أتعلم .

قال المهندس :

ـ وباللغة العربية الفصحى !

قـال فلفل :

ـ نعم .. لغة القرآن الكريم .

واستولت الدهشة على المهندس ، ونسى عناده ، وانتهت أزمة فلفل .

تقول خادمة تعمل فى مسكنى بالطابق الرابع من العمارة ، انها شاهدت فريد الاطرش يقف بعربته أمام مدخل الجاراج ، ويتبادل الحديث مع فلفل ، فى نفس تلك الليلة ، التى أقام فيها فريد الاطرش حفلا ساهرا فى ستاد الاسكندرية ، ولم يصدقها أحد ، ولكن سيدة البيت ، وبناتها استربن فى الأمر . وسألت صغرى البنات فلفل عن حقيقة الأمر ، فقال لها :

ــ نعم .. فهو صديقى .

***

صباح يوم ، جاء رجل يبحث عن فلفل . وأخذه واختفيا . ولمـــا عاد فلفل بعد ذلك اللقـــاء . كان صامتا يقابل أصحاب السيارات فى خمول ، لا يحكى ، ولا يرقص بجسده ، وظنوا أنه مريض . ولكن فلفل كان مشغولا بفرصة العمر التى هبطت من السماء . أن يقبض مائتى جنيه ، مقابل أن يستغل مهارته فى قيادة السيارات ، ليقود لورى محملا بالبضائع من الميناء الى خارج المنطقة الجمركية .

سأل فلفل الرجل الذى جاء يعرض عليه المائتى جنيه :

ــ كيف عرفتنى ؟

قال له الرجل فى ثقة :

ــ رجلنا الكبير يعرفك جيدا . ويعرف أنك تستطيع أن تقود أى سيارة بجرأة . وعلى سرعة مائة وأربعين وأكثر .

ســـأل فلفل :

ــ من هـــو ؟

قـــال الرجل :

ــ هذا ليس شأنك . لك أن تقبض النقود . ولو قبلت . أعطيك عشرة جنيهات . وقبل دخول الميناء أعطيك بقية المـــائة ، وبعد خروجك من الميناء تأخذ المـــائة الثانية .

قال فلفل على الفور :

ــ قبلت .

ولكنه سأل بعد قليل :

ــ هل هناك خطر ؟

قـــال الرجل :

ــ نحن على اتفاق مع البوليس .

ســـأل فلفل :

ــ أكيد ؟

قـال الرجل :

ـ يوسف ابراهيم الضابط الكبير • اتفق وقبض المعلوم••

واخذ فلفل الجنيهات العشرة • وغاب عن وعيه فى الغرزة ، وافتقده أصحاب السـيارات • وأرسـلوا لصاحب الجاراج ، فأحضر لهم سايسا آخر •

وفى اليوم المحدد ، قبض فلفل تسعين جنيها ، كانت أصابعه تتحسسها ، وهو يشعر بدوار • وركب اللورى • ودخـل به الميناء • ولم يترك مكان القيـادة أثناء عمليـة الشحن • كان مشغولا بتحسس الجنيهـات التى يمتلىء بها جيبه • بعد قليل سوف يحصل على مائة أخرى هذه حقيقة لاشـك فيها • علم لا حلم • حيـاة حقيقية ، لا حكايـات واعتذارات ، واهانات وركلات ، وعلب صفيح ، وبقايا طعام وقطط • بدأت الحيـاة يا فلفل • سوف تعيش ملكا • سوف يكون لك جاراج خـاص مثل مستر شنكر وأحسن • ستركب البويك • النقود معك • الأبواب مفتوحة أمامك •

انتهى الشحن ، وقـاد فلفل اللورى ، خارجا من بوابـة الجمرك • ولكنه فوجىء برجـال شرطة يعترضونه ويريدون ايقافه وتفتيشه •

صرخ فيهم :

ـ لا أحد يفتش هذا اللورى •

قال له أحد رجال الشرطة :

ـ عندنا أوامر •

زعق فلفل :

ـ أنا أقول لك • ان يوسف بك ابراهيم بنفسه أمر بعدم تفتيش هذا اللورى •

نظر اليه رجل الشرطة ، فى غير فهم ، وكأن ما سمعه لا يعنيه •

وصاح فى جنوده أن يفتشوا الحمولة •

لمعت عينا فلفل بجسارة وقحة • واندفع بسيارته فجأة مقتحما الحواجز ، وانطلقت الصفارات ، ولكنه كان يعرف كيف يمضى فى طريقه ، بسرعة لا يجرؤ عليها أحد • لا حواجز ولا أبواب ، ولا أجساد تقف أمامه وتلوح له أن يقف • ولا حتى طلقات الرصاص التى كان يسمعها • انطلق بسرعة مائة وأربعين هادرا ساحقا كل ما أمامه الى الخارج •• حتى وجدوا جثته ساقطة بين حطام اللورى • وحطام الترام الذى اصطدمت به •

فهرس



هذا هو العام السابع من عمر «مكتبة الأسرة» .. ومنذ سنوات طوال لم يلتف الناس حول مشروع ثقافى كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقافى الضخم حتى أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام. واستجبنا لهذا المطلب الجماهيرى العزيز إيمانًا منا بأهمية الكتاب؛ وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها؛ فى إعادة صياغة وتشكيل وجدان الأمة واستعادة دورها الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبة الأسرة» .. أن تعيد الروح إلى الكتاب مصدرًا هامًا وخالدًا للثقافة فى زمن الإبهارات التكنولوجية المعاصرة.. وها نحن نحتفل ببدء العام السابع من عُمر هذه المكتبة التى أصدرت (١٧٠٠) عنوانًا فى أكثر من «٣٠ مليون نسخة» تحتضنها الأسرة المصرية فى عيونها وعقولها زادًا وتراثًا لايبلى من أجل حياة أفضل لهذه الأمة.. ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

سوزان مبارك

مهرجان القراءة للجميع
للطفل - للشاب - للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة

١٥٠ قرش

مكتبة الأسرة 2000
مهرجان القراءة للجميع